٢٣٩

HARLEQUIN

روايات احلام

عندما يقفل الحب بابه

كاثرين روس

WWW.ELROMANCIA.COM
مرمورية

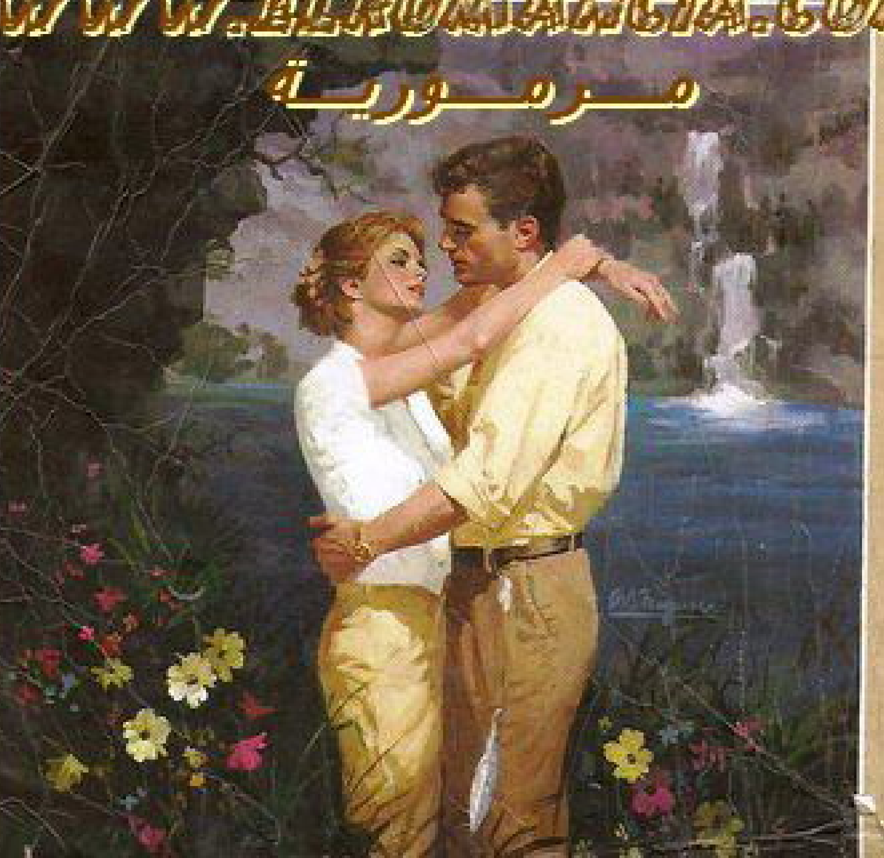

عندما يقفل الحب بابه

كاترين روس

لم تكن إليزابيث هاموند تخاف شيئاً أو أحداً... فكيف يمكن لمغلّف مغلق أن يخيفها إلى هذا الحد؟

كانت تعرف أن عليها أن تفتحه وتستعد لمواجهة مصيرها... لكن لماذا تشعر أن الأوراق في داخله ليست حكماً بالطلاق بل حكماً بإعدامها؟

منذ ثمانية عشر شهراً أقدم جاي وإليزابيث على زواج سريع كي تحصل إليزابيث على ميراثها. ولكن عندما اشتبهت أن لزوجها علاقة بامرأة أخرى تركته وهربت من جمايكا لتبدأ حياة جديدة في لندن...

وها قد جاء جاي الآن إلى لندن، ولديه طلب واحد فقط: أن توقّع على الأوراق!

فلماذا تخونها شجاعتها إلى هذا الحد؟ وكيف يخاف سجين من إطلاق سراحه؟

١ ـ الأوراق المرّة

كانت إليزابيث هي التي عرضت الزواج، لذا إن كان عليها أن تحمل أحدهم مسؤولية فشل زواجها، فهي أوّل من يلام ولو قليلاً. . . مع أن «جاي» هو المسؤول الأكبر عن ذلك. فهو لم يحبها، لكنه وافق على الزواج بها لأسباب عرف مسبقاً أنها خاطئة تماماً.

عندما كانت تجيب زملاءها أن زواجها لم يدم سوى ستة أشهر، كانوا يسألونها متعجبين إن كان دافعها للزواج هو رغبتها في عرس وارتداء الثوب الأبيض، فكانت تجيبهم نافية بجفاء وتقول إنها كانت ترغب فيه فقط.

تلك الأفكار كانت تساورها كلّما فتحت درج مكتبها ورأت ذلك المغلف الرسمي الطابع، فتتصوره يحدّق إليها معنفاً. لكنّ هذا هراء، طبعاً! فكيف بإمكان مغلّف أن يعنّف؟ ومع ذلك، كانت تشعر بالراحة عندما تعود فتصفق الدرج.

وصلها المغلف مع رسول منذ عشرة أيام، فوضعت توقيعها واستلمته، ظناً منها بأنه يتعلق بالعمل. لكنها عندما نظرت إليه، وجدت عليه طوابع جزيرة «جمايكا» وميزّت الخط.

كان خطه، فخافت أن تفتحه. خافت لأنها علمت، في أعماقها، أنه يحتوي على أوراق الطلاق. لم تكن الفتاة العاملة الناجحة إليزابيث هاموند، تخاف شيئاً أو أحداً. . . أخذت تسخر من نفسها، لكنها بحاجة إلى دراسة الأمر. لذا، ستأخذه معها إلى البيت الليلة، وتستعد لتواجه مصيرها.

سألها روبرت وهو يمرّ بمكتبها: «أترغبين في تناول شراب ما بعد العمل، يا إليزابيث؟».

أجابت دون أن تنظر إليه: «آسفة يا روبرت لا أستطيع! لديّ رزمة من الأوراق عليّ أن انهيها».

ـ غداً إذن؟

ورن الهاتف على مكتبها، فرفعت السماعة وهي تنظر إلى الساعة في يدها، لا سيما أنّ اجتماعاً هاماً ينتظرها بعد عشر دقائق.

ـ «شركة ريتشموند للإعلان». إليزابيث هاموند، هل من خدمة؟

ـ يمكنك أن تخدميني بتوقيع الأوراق اللعينة التي أرسلتها إليك!

كان ذلك الصوت الجاف صوت زوجها البعيد، الأمريكي اللهجة، فطغى على كل الضجيج الناجم عن العمل في المكتب وعن رنين التليفونات، والناس وحركة السير في الخارج. . . كل ذلك اختفى وكأنما بسحر ساحر، حتى لم تعد تسمع سوى صوتها وصوت «جاي» على الخط.

وعندما لم تجب قال محذراً بهدوء: «إليزابيث! لا تتجرّئي على إقفال الخط بوجهي».

لم تراودها هذه الفكرة من قبل. لكنّ عندها شعرت برغبة قويّة في القيام بذلك. غير أنها تمالكت أعصابها، وكأنه لم يمرّ اثنا عشر شهراً منذ تكلما لآخر مرة. . . أو كأن صوته لا يعني لها شيئاً:

ـ أنا مشغولة، يا «جاي».

فقال بفظاظة: «نعم، أنا أيضاً. لماذا لم توقّعي الأوراق؟».

ـ لم أقرأها بعد بشكل كافٍ.

لم تكن إليزابيث تكذب، إذ كانت تتخيّل الحرارة تنبعث من الدرج حيث الأوراق التي لم تُلمس ولم تُقرأ بعد.

ـ هل تتعمدين الغباء؟

ـ لا!

ـ أنت تخدعينني.

ـ لا أحد يمكنه أن يخدعك، يا جاي! هل نسيت أنك معصوم عن الخطأ؟

مرّت لحظة صمت، فتمنّت لو أنها لم تقل شيئاً. ما الفائدة من الشّجار؟ فهو لن يفضي إلى أيّ نتيجة كالعادة! ربما كان على حق، ولعلها هي من يتعمد الغباء، فقد أدركت، منذ اللحظة التي رأت فيها المغلّف، أنه يحتوي على أوراق الطلاق. لكنها لم تفتحه. وكان ذلك خطأً منها. كان عليها أن توقّعها، ثم تخرج جاي هاموند نهائياً من حياتها. . ألم يحن الوقت لاتخاذ الإجراءات، وقد مضى عام على انفصالهما؟

ـ اسمع يا جاي، أنا. . .

فقال إزاء لهجتها الودود: «متى ينتهي عملك؟».

فقطبت جبينها: «ماذا؟».

وما الهدف من سؤاله؟ فجاي في جمايكا. . . وهي في لندن. أتراه يريد أن يرسل إليها مكاتبة بالفاكس؟ فأجابت: «حسناً، عند الخامسة والنصف».

ـ سأمرّ بالمكتب لأصطحبك، فلا تتأخري!

ـ جاي، أنا. . .

لكنه أقفل الخط، وتملكها الذعر، فازدادت توتراً، جاي هنا في لندن! وشعرت بالغثيان من التوجس. لا تستطيع أن تراه، فهذا ما لا طاقة لها عليه.

ربما بإمكانها إخبار الجميع بأنها مريضة، والذهاب إلى البيت وإقفال الباب، وسحب شريط التليفون من القابس.

ـ هل أنت بخير، يا إليزابيث؟

صوت تناهى إلى مسمعها، وكأنه قادم من بعيد، وعاد يقول ساخراً: «اليقظة! اليقظة يا إليزابيث! لديك اجتماع بعد خمس دقائق، ألا تريدين الذهاب إليه؟».

ورفعت رأسها لترى كولين واطسن، وهو شاب في حوالى الخامسة والثلاثين، طويل القامة، حسن المظهر، هذا إذا استثنينا ملامح الغرور على وجهه. لم تكن إليزابيث تطيقه، لأنه يهدف إلى سلبها وظيفتها منذ ثلاثة أشهر، وجلّ ما يتمنّاه هو أن يراها تذهب إلى بيتها، وتدعه يستلم مكانها في هذا الاجتماع.

نظرت إليزابيث إليه الآن، وهي تتمنّى لو تشتمه. . . لكن إليزابيث هاموند لا تشتم أبداً. . . بل تذهب إلى بيتها وتبتلع بعض الحبوب النباتية المهدئة، ثم تغرق نفسها في العمل.

وأرغمت نفسها على الابتسام فهي تفضل الموت على أن تدع كولين المتعصب هذا يهزمها.

قالت له، مبتسمةً، وهي تجمع أوراقها: «أنا ذاهبة إلى الاجتماع الآن، يا كولين، فأنا جاهزة لحضوره!».

كان من المفروض أن يستمر الاجتماع لمدة ساعة واحدة، لكنه دام ثلاث ساعات، فقد أخذوا يقلبون فكرة إليزابيث عن الحملة الإعلانية لمسحوق الصابون الجديد، ويفكرون فيها بعمق، وكأنهم يتحدثون عن علاج للسرطان. وامتنعت إليزابيث عن النظر إلى ساعتها حتى انتهى كل شيء، فلو رآها جون الرئيس تنظر إلى ساعتها لظن أن التزامها بالعمل هو أقل من مئة بالمئة. وهذا، في نظر رئيسها، أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها أي شخص. وإذ همّت بجمع أشيائها، ألقت نظرة إلى الوقت، فإذا هي الساعة الخامسة تقريباً. وفكّرت بالإسراع في مغادرة المكاتب علّها تتجنّب رؤية جاي، فهي غير مستعدّة لأن تراه اليوم.

وضعت الأوراق والتليفون الخليوي في الحقيبة. ثم قالت لمديرها: «أنا ذاهبة إلى البيت، يا جون، سوف أدرس التفاصيل بهدوء».

ـ حسناً، إلى اللقاء غداً في الثامنة والنصف صباحاً! أتمنّى أن تنمّي حساب «ميندا» هذه الليلة.

أيقنت إليزابيث أن هذه الكلمات هي أمر وليست مجرد طلب. فهي

تعرف أن رئيسها يريد ذلك على مكتبه، قبل أيّ شيء آخر في الصباح.

ـ لا مشكلة في هذا.

وابتسمت لكولين وهي تمرّ به. فعلى الرغم من محاولاته الكثيرة لإفساد عملها، سار كل شيء على ما يرام.

أحضرت المغلف الرسمي من الدرج، ودسّته في حقيبتها بين بقية أشيائها. . عليها أن تقوم بالكثير من الأشياء الليلة: أن تقرأ أوراق الطلاق، أن تجهز حساباً آخر لمديرها. لكن كل ما كانت تتمناه هو الذهاب إلى سريرها ورفع الأغطية إلى ما فوق رأسها.

ما لبثت أن عنّفت نفسها على الحزن الذي تملكها. فلم الحزن وقد انتهى زواجها قبل أن يبدأ! لن تغيّر الأوراق الرسمية شيئاً!

وقبل أن تغادر المبنى، ذهبت إلى استراحة السيدات وأصلحت مظهرها. ثم أخذت تتأمل شحوب وجهها وهي تسرّح شعرها القاتم القصير، وتحدث نفسها بخشونة، بأن لديها على الأقل حياة مهنية ناجحة وهي تعوّض عن حياتها الشخصية الكارثة.

لماذا تشعر إذن، بهذا الثقل في قلبها؟ لماذا تشعر بثقل ذلك المغلف في حقيبة أوراقها وكأنه يزن طناً؟

ربما لأن غداً هو عيد ميلادها الثلاثين. وسن الثلاثين يبدو أكبر بكثير من سن التاسعة والعشرين. لكم شعرت بالاكتئاب لفكرة أنها تكبر في السن وتطلق من زوجها في الوقت نفسه!

ارتدت معطفها الرمادي الطويل، ثم حملت حقيبة الأوراق. النهايات مؤلمة على الدوام وهذا كل شيء. لم تعد تحب جاي. . ستواجه هذه النهاية معه، وستعتبر عيد ميلادها الثلاثين بداية جديدة.

أسرعت لتدرك أحد المصاعد المنتظرة في الممر، ونظرت مرة أخرى إلى ساعتها والمصعد يهبط من الطابق السادس إلى الطابق الأرضي. كان الوقت أبكر بعشرين دقيقة عن موعدها مع جاي وبهذا تتجنب رؤيته، ثم تأخذ قطار المترو، وبعد ذلك تقفل عليها باب شقتها. وإذا جاء إلى بيتها،

فلن تفتح له مهما ضغط على الجرس.

شعرت إليزابيث بصدمة بعد أن التقت عيونهما. سرت قشعريرة في جسمها، وتملكها الألم والغضب لهنيهة حين وجدت نفسها تعترف بمقدار وسامته وجاذبيته وتسارعت خفقات قلبها كما كان يحصل لها أيام افتتانها به.

كان أسود الشعر، طويل القامة، قوي البنية، ورياضي الجسم. كل ذلك برز من خلال معطفه القاتم، الذي كان يرتديه فوق بذلته، وكان لونه الأسمر يتعارض تماماً مع ذلك النهار الرمادي من أيام شباط. اخترقت نظراته عينيها فشحب وجهها.

تساءلت عما إذا كان بإمكانها أن تتظاهر بعدم رؤيته لتنساب بعدها بهدوء، فتخرج من الباب الجانبي، ثم تختلط بالجموع السائرة في شارع أكسفورد فلا يتمكن من إدراكها.

وإذا بموظفة الاستقبال تناديها، فتعيدها إلى الواقع: «يا سيدة هاموند، لديك زائر! كنت على وشك الاتصال بك تليفونياً».

ـ لا بأس، شكراً.

قالت ذلك وهي تبتسم. ثم اتجهت نحو زوجها، وهي تشعر بوهن في ساقيها.

جالت نظراته لتستوعب كل شيء فيها في هذه اللحظات القليلة... بذلة عملها الرمادية الأنيقة، جوربيها الحريريين، حذاءيها العاليين، وذلك قبل أن يعود لينظر في عينيها: «مرحباً، إليزابيث».

ـ مرحباً.

ثم ساد صمت... صمت لم تسمع فيه سوى ضربات قلبها. ليته لا ينظر إليها بذلك الشكل! وكأن بإمكانه أن ينفذ إلى روحها ويعلم الحقيقة.

وفي محاولة لتمالك مشاعرها حدثت نفسها بأنها في الثلاثين، وأنه لا ينبغي أن يستمر هذا الرجل في جعلها تشتعل كمراهقة معقودة اللسان، لا سيما أنها لم تعد تحبه.

وفجأة خرج من المصاعد، خلفهما، بعض الموظفين، فقالوا لها:

ـ إلى اللقاء غداً صباحاً يا إليزابيث!

ـ إلى... اللقاء.

ونظرت إليهم، فخفّ التوتر الذي كانت تشعر به. كانت بينهم سكرتيرات مكتبها. لكنهن لم ينظرن إلى إليزابيث بل إلى جاي، وقد لمع الإعجاب في أعينهن.

وقال جاي، فجأة: «حسناً، هل نذهب؟».

فأجابت: «إلى أين».

ـ فكرت في أن نتناول العشاء معاً، ثم نتحدث أثناء العشاء؟

أرادت أن تضحك. فقربه هذا يربكها ويجعل حتى التنفس صعباً عليها، فماذا سيكون الحال إذا تناولت الطعام معه؟

ـ ما الذي تفعله هنا، يا جاي؟

ـ أنت تعلمين لمَ أنا هنا.

ثم أمسك بذراعها، وقاد إليزابيث إلى الخارج. شعرت ببرد النهار القارس بعد التدفئة المركزية في المكتب، فشدت أطراف معطفها حول جسمها النحيف، وحاولت الإبتعاد عن جاي. لكنه لم يشأ ترك ذراعها، وكانت قبضته من الشدة بحيث آلمتها.

فهمست بغضب، وعيناها تتوهجان وهما تنظران إليه: «هل لك أن تتركني؟».

ـ نحن ذاهبان لتناول العشاء.

قادها نحو سيارة تقف عند منعطف الشارع: «لن أذهب معك إلى أيّ مكان!».

ـ بل ستذهبين!

وفتح باب السيارة ينتظر منها الصعود: «اللعنة! هل تعتقد أنني سأمتثل لمشيئتك بسهولة، يا جاي هاموند؟ عليّ القيام بأشياء أهم من ذلك!».

ـ نعم، أنا واثق من ذلك! لكنني جئت إليك بالطائرة من مكان بعيد، لكي أحادثك.

- حسناً، هذه مشكلتك أنت! ثم، هلاّ تركت ذراعي، أنت تؤلمني!
- آسف.

وترك ذراعها فوراً فأخذت تدعكها وهي تنظر إليه معنفة.

- اسمعي! لقد أدركت أنك امرأة كثيرة الانشغال، وربّما حضوري المفاجيء صدمك. لكنني أريد التحدث إليك يا إليزابيث! الأمر مستعجل! ماذا تقولين؟ هل تعطينني القليل من وقتك؟ رجاءً.

يا لجهنم! أتراه يحاول أن يكون رقيقاً معها؟ بإمكانها أن تواجه جيداً ازدراءه وغطرسته. ولكن ما لا يمكنها أن تحتمله هو أن يكون لطيفاً معها.

تنقلت نظراتها على وجهه الوسيم. كان من الصعب التنبؤ بأفكاره، فقد كانت ملامحه جامدة. وتنهدت: «لا بأس! ولكن ليس أمامي سوى ساعة، فلدي عمل عليّ أن أنجزه».

ابتسم: «شكراً، أقدّر لك ذلك!».

وفتح لها الباب، فدخلت إلى السيارة وهي تحدّث نفسها بأن ما قامت به كان تجنباً لإحداث مشهد غاضب أمام الناس.

أغلق الباب، ثم استدار ليصعد إلى جانبها. وأخذت تنظر إليه وهو يشدّ الحزام حوله قبل أن يندمج في حركة السير. لو أن أحداً أخبرها هذا الصباح أن جاي سيأتي لأخذها بسيارته، لاعتبرته مجنوناً.

وسألته بحرص: «لا أظنك حقاً قطعت كل تلك المسافة لكي تراني... أليس كذلك؟».

فنظر إليها: «بل هذا صحيح!».

أرادت أن تسأله لماذا، لكنها لم تستطع. كانت مذعورة من أن يتلفظ بكلمة الطلاق المخيفة. ولكن لا بد أن هذا هو السبب، وماذا قد يكون غير ذلك؟ إنه يريد الطلاق.

شمّت رائحة بعد الحلاقة المألوفة، فتحركت في نفسها ذكريات مؤلمة سرعان ما كبحتها. وسألته، لمجرد الحاجة إلى الكلام: «من أين حصلت على السيارة».

- استأجرتها.
- وأين تقيم؟
- لا أدري، لم أحجز في أي فندق بعد!

فقطبت جبينها: «أتعني أنك وصلت لتوّك».

- نعم، لقد اتصلت بك من المطار.
- آه!

ليتني قادرة على التفكير بشكل صحيح... أخذت تنظر إليه، وهو يقود السيارة داخل موقف تحت الأرض. نظرت إلى انعكاس أنوار النيون على وجهه، وهي تتلاعب على ملامحه الصلبة.

- هل حجزت مائدة في المطعم ولم تحجز غرفة في الفندق؟
- يمكنني التفكير بشكل أفضل ومعدتي ممتلئة.

وضحك. أخذت تحدق إليه محاولة أن تفهم ذلك. لكن ذهنها كان مشتتاً، ومشغولاً بأفكار وأفكار: كيف تضيء عيناه عندما يبتسم، وكيف أن شفتيه حازمتان ومع ذلك مكتنزتان، وكيف أن شكل وجهه مربع صلب الملامح، وهذا ما يمنحه مظهر العزيمة والغطرسة.

أحياناً كانت تراه في أحلامها، وتتصور كيف سيكون الأمر لو رأته في اليقظة فتظن أحياناً أنها لن تشعر بشيء، ويتلوّى قلبها شوقاً أحياناً أخرى. أما الآن فهي لا تدري ما يحدثها به قلبها إلا أنه رائع المظهر... وكان هذا جنوناً منها.

سألها بعد أن لاحظ أنها لم تنتبه إلى وقوف السيارة: «إليزابيث، هل أنت بخير؟».

ورأت عينيه تستقران على شفتيها: «طبعاً أنا بخير».

وحوّلت عينيها عنه، ثم حملت حقيبة أوراقها وفتحت باب السيارة.

وتابعت الكذب فقالت: «أنا مثلك جائعة، ولا أستطيع التفكير ومعدتي خالية!».

***

٢ ـ عندما يقفل الحب بابه . . .

كان المطعم أفضل مطاعم المدينة . وقد اعتادت إليزابيث الذهاب إليه عندما يكون عليها الاحتفاء بزبائن الشركة . ولكنها لم تكن تستطيع ، حتى في ذلك الوقت ، الحصول على مائدة في الغرف الصغيرة الجانبية الخاصة ، إذ كان ينبغي دوماً حجزها قبل أسابيع . وبعد أن توارى النادل واستقرا في إحدى تلك الغرف ، سألته إليزابيث : «كيف حصلت على هذه المائدة؟» .

ـ لقد رشوت رئيس النُدل .

فنظرت إليه بعينين متعجبتين : «حقاً؟ لم أرك تفعل ذلك» .

ضحك وناولها قائمة الطعام ، فأدركت أنه كان يغيظها مداعباً .

اشتبكت أعينهما للحظة ، ثم شعرت بنظراته تكتسحها ، متأملاً وجهها الذي يشبه شكل القلب ، وشعرها الفاحم السواد ، وخطوط جسمها الرشيق . وتمتم يقول : «تبدين بصحة جيدة!» .

فنظرت إليه بابتسامة متوترة : «شكراً وكذلك أنت!» .

كانا يتحدثان كغريبين ، كأنهما لم يقسما ، ذات يوم ، بعهود الزواج بالحب والعيش معاً في السرّاء والضرّاء؟ والتوت شفتاها بجفاء وهي تتذكر الخدعة تلك .

ـ أراك قصصت شعرك .

فرفعت يدها بارتباك إلى شعرها المقصوص بطراز صبياني ، وتذكرت قوله لها مرة كم يحب شعرها الذي وصل إلى خصرها طولاً : «أصبحت

العناية به صعبة» .

فلمعت في عينيه ابتسامة : «هذا مؤسف ، كنت أحب شعرك!» .

هل يعني أنه لا يحبه الآن؟ حسناً ، هذا لا يهمها! فقد قصته لأنها لم تعد تهتم بما يحب جاي أو بما لا يحبه .

قال ببساطة : «كان ذلك منذ وقت طويل ، أليس كذلك؟ منذ سنة تقريباً» .

كان ذلك منذ أكثر من سنة ، لكنها لم تشأ الاعتراف بأنها كانت تعد الأيام .

ـ أعتقد ذلك! كيف الأحوال في جمايكا؟

ابتسم : «الجو حار . هل تفتقدينها؟» .

طبعاً كانت تفتقدها! نعم هي انكليزية الأصل ، ولكن والديها انتقلا إلى هناك منذ كانت في التاسعة . لذا ما زالت تعتبر جمايكا وطنها ، لكنها لن تعترف لجاي بأنها تشعر بالحنين إلى الوطن الذي تركته بسببه . . .

ابتسمت هازة كتفيها : «أحياناً» .

ثم جاء النادل ليسألهما عما يشربان ، فسألها جاي : «ماذا تشربين؟» .

ـ كوباً من عصير الليمون .

بدا جاي منتعشاً وبصحة جيدة ، رغم رحلته التي استغرقت عشر ساعات بالطائرة . ومال إلى الخلف ماداً ساقيه الطويلتين ، فبدا مثالاً للرجولة بعضلاته القوية واسترخائه المتغطرس . وسرّها أن تلحظ خصلة من الشعر الأبيض وسط شعره الكثيف الأسود . فلاحظت أنّه كان يكبر في السن . هذا حسن . . . ربما يأتي اليوم الذي لا تعود فيه النساء تراه جذاباً .

إذا كانت هناك عدالة في الدنيا ، فربما يدرك يوماً ما هي المشاعر التي يتركها الحب غير المتبادل ، وربما يراجع حياته الماضية ويقول : ليتني لم أدع إليزابيث تذهب! فهي المرأة الوحيدة التي كانت تحبني حقاً! وفي نفس الوقت ، تكون هي متزوجة من رجل رائع يكنّ لها حباً كبيراً . عند ذلك ، ستضحك قائلة إنها مسرورة لأنها تركت جاي .

ومال جاي إلى الأمام، فانتفضت إليزابيث خارجة من أحلام اليقظة وشعرت بحماقتها. إنه هو الذي أراد الطلاق، وهذا يعني أن ثمة امرأة أخرى في حياته. . . أتراه يريد الزواج بليزا؟ وآلمتها هذه الفكرة.

ـ أفهم من هذا أن الحياة في إنكلترا رائعة كما كنت تظنين؟

ـ بل أكثر من رائعة، وأنا أعبدها!

فقال بنبرة ساخرة: «حقاً؟ أنا مسرور لعدم خيبة أملك».

فضاقت عيناها: «حسناً، يا جاي! أعتذر على وقاحتي لكنني واثقة من أنك لم تقطع كل هذه المسافة لمجرد الثرثرة معي! هل لك أن تنتقل مباشرة إلى الموضوع؟».

ـ الموضوع تعرفينه. لمَ لم توقعي تلك الأوراق؟

قال ذلك بهدوء، فقالت متجنبة نظراته: «لم أفتح المغلف بعد. . هذا كل شيء!».

أحضر النادل لهما العصير. وتصاعد عزف بيانو من الناحية الأخرى للقاعة، فاختلط لحنه الهادىء العذب بهمهمة رقيقة من الأحاديث حولهما. لكن ذلك كان يتعارض مع تشنجهما.

وسألها وهو يرى نادلاً آخر يتجه نحوهما: «هل أنت مستعدة لطلب الطعام؟».

ـ نعم.

فاختارت السلطة، ثم اغلقت القائمة وناولته إياها باسمة، تتظاهر بأن ما بينهما شؤون عمل، فهذا ما تحسنه.

قالت له: «يدهشني أن تتذكر لندن إلى حد أنك اخترت هذا المطعم متى زرت لندن آخر مرة؟».

ـ منذ سبعة أشهر.

توقعت أن يقول سبع سنوات، لأنها كانت تعلم أنه زار انكلترا قبل تعارفهما، لذا صُدمت حين قال إنه كان هنا ولم يحاول رؤيتها.

ـ آه!

حسناً، ولماذا يحاول أن يراها الآن؟ ولم لم يحاول حين زار لندن آخر مرة؟

ـ كنت هنا في عمل، فأنا أصمم مركباً للدوران حول العالم في سباق لليخوت.

فقالت بتكاسل: «صناعة المراكب ناجحة معك إذن؟».

قطب جبينه: «إليزابيث، أنت ما زلت الشريك النائم في العمل. . إنني أرسل إليك شيكاً كل ثلاثة أشهر، مباشرة إلى حسابك في البنك. وهذا يعني أنك تعرفين حالة العمل».

هزت كتفيها. إذ لم تستلم قط ذلك المال، لأنها لا تريده. ولأنها تعتبره أشبه بدية قتيل.

وتابع يقول: «لست بحاجة إلى الإدعاء، فأنا أعرف مبلغ ما يعنيه المال لك، وأظن أن السبب الذي منعك من التوقيع على أوراقي هو مالي أيضاً».

ـ آسفة إذا خيّب ما سأقوله أملك، يا جاي. لكنني لا أريد أموالك! أنا امرأة عاملة ناجحة ومستقلة.

فقال بفروغ صبر: «حسناً، إنك على كل حال تحبين التظاهر بذلك».

ـ أنا لا أتظاهر يا جاي، بل أنا مستقلة فعلاً.

قال ساخراً: «هل لي أن أذكّر إليزابيث هاموند بأنها ما آلت إلى ما هي عليه اليوم لولا عوني لها؟».

فردّت عليه بحدّة وعيناها تلتهبان شرراً: «الأمر سيّان بالنسبة إليك، فلولا عوني لما وصلت إلى ما أنت عليه اليوم! كانت خطتنا لمصلحتنا نحن الإثنين، فلا تنس هذا!».

ـ حسناً.

نظر إلى الساعة في يده، وقال: «كم استغرق كل هذا؟ ربع ساعة؟ ها نحن نعود إلى نفس النقاش الذي دار بيننا منذ سنة».

تمتمت تقول: «أنت بدأت بذلك».

قال مجتهماً: «بل أنت من بدأ به، عندما عرضت عليّ الزواج».

ـ لم أعرض عليك الزواج، بل عرضت عقد اتفاقية مشتركة بيننا وما كنت لأفعل ذلك لولا حاجتي الماسة له. ظننتك صديقاً وسيداً مهذباً. لكن يبدو أنني كنت مخطئة في الاعتبارين!.

ـ ربما لم أكن سيداً مهذباً، لكنني كنت صديقك.

شعرت بقلبها ينقبض.. لقد دمّرت كل شيء.. كان جاي ودوداً معها في الماضي وكانا صديقين! لكنه الآن ينظر إليها بازدراء، معتقداً أنها تبحث عن المال، وأنها استغلته طمعاً. لكنه لم يكن طمعاً بالمال، بل بجعل ما يربطهما بجاي أكثر من مجرد صداقة، أرادت منه أن يحبها، كما تحبه، ولكن كبرياءها منعتها من التعبير عن شعورها الدفين، فاستغلت شروط وصيّة أبيها للتقرّب منه.

تذكرت بوضوح يوم تقدمت بهذا العرض المشين.. كانا جالسين في مقهى على شاطىء البحر، وكانت حزينة جداً. فقال لها برقة: «لم أرك يوماً متجهّمة إلى هذا الحد. أعرف أن لموت أبيك وقعاً ألماً عليك، ولكن هذا قضاء وقدر!».

ـ وما عساي أفعل؟

ـ لا أدري... أعلم أن موت هنري كان صدمة بالنسبة إليك، وأنك متأثرة، وأعلم أيضاً أن شروط وصيّته صعبة جداً. لا أصدق أنه كتب مثل تلك الوصية.

ـ تعرف أن هنري يتشبث بأي فكرة تخطر بباله، وقد صرح دوماً بأن جلّ ما يتمناه هو أن يرانا، أنا وأنت، متزوجين.

ـ نعم، هذا صحيح! فقد عملت عنده لسنتين، ولم يمضِ يوم من دون أن يذكر اسمك لي بالمديح البالغ.

بدت لمحة هزل في عيني جاي لحظة: «كنا نجد وساطته للزواج تلك غريبة ومضحكة، أليس كذلك يا أليزابيث؟».

فقاطعته إليزابيث بارتباك: «دعنا من كل ذلك».

كان جاي يعتبر وساطة أبيها لتزويجهما شيئاً مسلياً، لكنها لم تكن تشاطره الشعور نفسه، لأن هذه الوساطة كانت تتجاوب مع ما تشعر به سراً في قلبها.

حاولت أن تبدو هادئة، وموضوعية وهي تقول: «في الواقع، كانت وصية هنري واضحة وصريحة فقد أرادنا أن نتزوج خلال سبعة أسابيع، وإلا آل كل ما يملك، بما في ذلك حوض بناء المراكب والمبلغ المالي الضخم، إلى زوجته».

ـ لا شك أن «شيريل» ستكفل معيشتك، فإنا واثق من أن أبيك ترك لها الكثير! ليس حوض بناء المراكب إلا جزء صغير من أملاك أبيك!

فقالت، بعد أن أشعرتها كلماته بجرح في كرامتها: «شيريل حرّة في تصرفاتها! ولكن ليست هذه هي المسألة. أليس كذلك؟ ألا يحق لي أن أطالب بما هو حق قانوني لي؟».

ـ حسناً، لا يمكنك القيام بأيّ شيء! أليس كذلك؟

حاولت إليزابيث أن تلفت نظر جاي إلى وضعه الخاص، إلى مستقبل وظيفته، علّه يعرض عليها الزواج، فسألته: «ألست قلقاً على وظيفتك؟».

ـ ليس تماماً. فشيريل على ما أظن ستبقيني في عملي.

ـ هذا إذا كان لديها إدراك وتفهم.

حاولت إليزابيث بذلك أن تغرس في ذهنه بعض الشكوك، رغم أنها كانت تعلم جيداً أن زوجة أبيها ما كانت لتستغني عن خدماته. فجاي مصمم موهوب، يدير المكان بكفاءة بالغة. وقد حاول والدها أن يجعله شريكاً معه في العمل ليضمن بقاءه، لكن جاي كان يرفض دوماً.

أجابها فجأة: «على كل حال، هناك عمل آخر عُرض عليّ».

ـ ماذا؟ أين؟ هنا على الجزيرة؟

فقال ضاحكاً: «لا، بل في «بهاما»».

صدمتها هذه الكلمات أكثر مما كانت ستصدم أباها، ولم تحتمل فكرة رحيل جاي.

- قدموا إليّ عرضاً جيداً، وأظنني سأقبله بعد انتهاء بعض الأعمال هنا. . .

فنظرت إليه بذعر: «لا يمكنك هذا!».

- لماذا لا يمكنني؟

- لأنّه عليك أن تبقى هنا وتتزوجني.

تذكرت الصمت الذي تلا كلماتها تلك، وكيف رفع حاجبيه هازلاً وقال: «صفيني بالرجعية، يا إليزابيث، ولكن العادة جرت في وطني أميركا، أن يعرض الرجال الزواج على النساء. . .».

أجابته بسرعة: «لا تمزح يا جاي، أنا أعرض عليك صفقة عمل».

عاودتها كلّ هذه الذكريات الآن. وتذكّرت كيف قالت له ذلك بكل ثقة، كما تذكرت عينيه السوداوين وهما تنظران في عينيها مباشرة.

- إذا تزوجتني، فسأمنحك نصف العمل، ويكون الربح مناصفة.

فقال متعجباً وهو يحدق إليها وكأنه لم يرها من قبل: «لم أدرك قط أن لك ذهناً عملياً».

- ربما لم تعرفني جيداً!

- قد يكون هذا صحيحاً!

- ما قولك، إذن؟

- لا أدري، عليّ أن أفكر في ذلك.

لم يكن يريدها حتى ملفوفة بالهدايا. . . فآلمها ذلك. ردة فعله تحسم الموضوع، فقالت: «لا بأس، سأعطيك ستين بالمئة لأنك ستقوم بالقسم الأكبر من العمل، وهذا آخر عرض أقدمه!».

- فلنكن واضحين إذن. أنت تقترحين أن نتزوج لكي تحققي شروط وصية والدك، ثم نباشر بإجراءات الطلاق بعد ذلك بأسابيع.

قطبت جبينها: «لا. لا يمكننا القيام بذلك. فقد اشترط أبي في وصيته أن نقيم معاً لمدة سنة، على الأقل».

فتمتم جاي متهكماً: «يا لهنري العجوز الطيب الذي فكّر في كل

شيء! وما عساه اشترط أيضاً؟».

تملكها الارتباك. وقبل أن ترد على تهكّمه، تابع بقول بسرعة: «إلى متى تريدين أن تستمري في هذه اللعبة؟».

- لا أدري، هل علينا أن نضع تاريخاً لها؟ على كل حال، لا أظن أن أياً منا يكنّ مشاعر حقيقية نحو الآخر، أليس كذلك؟ هل نترك الأمر للظروف إذن؟

مضت لحظة صمت أخذ ينظر فيها إليها، ممّا جعلها تشعر بأنها حمقاء. . . لكنه وافق أخيراً، فسُرّت.

- لا بأس، لكن على الزواج أن يجري على الشكل الصحيح.

- ما الذي تعنيه بذلك؟

وبدا فجأة أنه هو من يضع الشروط.

- نوقع وثيقة قبل الزواج نوضح فيها شروط زواجنا.

قالت بمرح: «حسناً!».

- وسأحضر عقداً بالشراء.

- لا ضرورة لهذا لأن نصف الملك سينتقل إليك بشكل آليّ حالما يتم الزواج. . .

فقاطعها: «لا أريد شيئاً من دون مقابل، يا إليزابيث. وعلى كل حال، يمكننا أن نستغل المال في تحسين حوض صناعة المراكب، الذي يحتاج إلى تحديث».

والآن، وقد مضى ثمانية عشر شهراً تقريباً، ها هي تجلس أمامه على المائدة وقد ازدادت سناً وحكمة، متمنية لو أنها لم تقم قط بهذه اللعبة. لكن الوقت فات، ولا جدوى من الندم الآن.

أحضر النادل لهما الطعام، وعبثت إليزابيث بالطعام فترة. لم يكن لديها شهية على الإطلاق.

قال فجأة: «هل أخبرتك «شيريل» أنها ستتزوج مرة أخرى؟ لقد كتبت لي الأسبوع الماضي تخبرني بذلك. أو بالأحرى تخبرنا بذلك. . . ما

زالت تظننا نعيش معاً».

سألته متعجبة: «بمن ستتزوج؟».

ـ لا أدري، أظنها قالت إن اسمه «ألان».

ابتسمت إليزابيث: «حسناً، أتمنّى لها السعادة، فقد افتقدت أبي كثيراً».

في الواقع، شعرت «شيريل» بوحدة بالغة في المنزل الذي كانت تعيش فيه مع والد إليزابيث، لذا باعته وعادت إلى أميركا.

ـ لقد دعتنا إلى عرسها.

ـ حقاً؟ في فلوريدا؟

فهز رأسه: «بل هي عائدة إلى جمايكا حيث سيتزوجان ويمضيان شهر العسل. سيتزوجان على الشاطىء!».

ـ كما فعلنا نحن.

أفلتت منها هذه الكلمات من دون وعي منها، فنظر إليها وقال: «نعم. كنتِ عروس الساعة الحادية عشرة، هل تذكرين؟ وضعوا هذه الملحوظة على لوحة الفندق بين أوقات دروس الغوص».

فابتسمت.. لقد حضر ذلك النهار الحار في جمايكا إلى ذاكرتها.. يومذاك كان نسيم البحر ينفخ خمارها العابق برائحة الأزهار الاستوائية.

ـ طبعاً أذكر ذلك! لقد ضحكنا من ذلك، نحن الاثنين... وقلنا إن غوصنا هو الأعمق بينها جميعاً.

ـ لكن غوصنا لم يكن عميقاً، أليس كذلك؟ ستة أشهر فقط!

فقالت تذكره: «ربما لم نمض معاً أكثر من ستة أشهر، لكننا ما زلنا متزوجين».

ولكنه أجابها بجفاء: «أتخافين أن تعترض زوجة أبيك على الوصية لأننا لم نسكن معاً مدة الاثني عشر شهراً المفروضة؟».

ـ لا تكن سخيفاً. «شيريل» لا تفعل شيئاً كهذا. على كل حال، هي لم تهتم يوماً بحوض بناء المراكب!

ـ أتراه السبب الذي جعلك تشعرين بالأمان؟ ألهذا رحلت بعد ستة أشهر؟ لقد فكّرت في كل شيء، أليس كذلك؟

جعلتها السخرية القاسية في كلامه تبدو حذرة وأنانية للغاية، ولكن ذلك كان بعيداً كل البعد عن الحقيقة! لقد قامرت بذلك الزواج.. قامرت بأنه سيشعر نحوها يوماً ما بشيء، ويحبها كما تحبه! ولكن ذلك لم يكن سوى حلم شاعري عنيف مستحيل.

وهزت رأسها: «لا، يا جاي! المشكلة هي أنني لم أفكر في أي شيء مسبقاً.. لقد اقترفت خطأً فادحاً، فالزواج أرفع وأسمى من أن ننحدر به إلى مستوى المغامرات العملية».

بدت ملامحه جامدة، وعيناه شاردتين وهو يقول: «هل أفهم أنك تلقين عليّ محاضرة عن المبادىء الأخلاقية للحياة الزوجية، يا إليزابيث؟ هل أذكرك بأن (المغامرات العملية) هي فكرتك أنت، وأنك عرضتها علي وأقنعتني بها، وبعد ذلك هجرتها ورحلت؟».

ـ كانت غلطة.

واشتبكت عيناها بعينيه لبرهة ولكنها لم تلبث أن حولتهما بعيداً.

ـ على كل حال، عليّ أن اكتب إلى «شيريل»، وأخبرها بانفصالنا.

فكرت في الكتابة إليها منذ فترة طويلة، لكنني كنت دوماً أرجىء ذلك.

ـ لقد أحضرت رسالتها معي!

ومد يده إلى جيب سترته الداخلي ثم أخرج الرسالة وناولها إليها:

ـ فكرت في أنك قد ترغبين في قراءتها. ففيها عنوانها ورقم تليفونها أيضاً.

شكرته، ثم وضعتها في حقيبة يدها وعادت إلى العبث بطعامها. وشعرت بشيء من الهدوء عندما لاحظت أن جاي أيضاً لم يأكل سوى القليل من عشائه. وفكرت فجأة في أنه قد يكون تعباً.

سألته فجأة: «إلى متى أنت باقٍ في لندن؟».

ـ إلى أن تنتهي من توقيع الأوراق، أريد أن آخذها معي.

- سأوقعها الليلة!
- شكراً!

هكذا إذن. . . نهاية زواج متحضرة! لا صراخ ولا تبادل اتهامات. . . فقط رزمة من الأوراق للتوقيع. لكنّها شعرت في مكان ما بداخلها، برغبة في البكاء.

وعندما رفع النادل الأطباق، سألها جاي: «هل تريدين حلوى أم قهوة؟».

فأجابت وهي تنظر إلى ساعتها: «لا شكراً يجب أن أذهب! لديّ عملٌ عليّ إنجازه».

- سأصطحبك إلى بيتك.

ورفع يده يلفت انتباه النادل، لم يتحدثا بعد ذلك حتى دخلا السيارة التي سارت بهما في الشوارع المظلمة. هدأت الأمور الآن. أرشدته إلى بيتها، محاولة ألاّ تدع ذهنها يفكر في المستقبل وبما إذا كانت ستراه مرة أخرى بعد توقيع الأوراق. أوقف سيارته أمام المبنى حيث شقتها، ثم نظر إليها.

ساد بينهما صمت ثقيل. كانت تبدو شاحبة بشكل لا يصدّق، إليزابيث التي كانت دوماً ذهبية البشرة. وأدهشه التناقض بين بياض بشرتها وسواد شعرها ممّا جعلها تبدو رائعة الجمال.

وأخذ يتساءل فجأة عما إذا كان لا يزال يملك القدرة على إثارة مشاعرها. فتمتم: «ثمة شيء في شعرك».

ثم مد يده إلى شعرها الحريري ينفض عنه بإصبعه شيئاً خيالياً.

أخذ يرقب تفاعلها مع لمسته، ملاحظاً الاحمرار الخفيف الذي بدا على وجنتيها والرجفة غير المحسوسة تقريباً التي انتابتها فأبعد يده وقد غمره الرضى. . . سرّه أن يعلم أنّه لا يزال يؤثر في حواسها. ولكن، لِمَ سرّه ذلك؟ أخذ يتساءل متعجباً. هل لأنه ما زال غاضباً لأنها هجرته سريعاً بعد زواجهما؟ ولأنها لم تهتم بكرامته ممّا خلق في أعماقه الرغبة في

الثأر لكرامته تلك؟

وسألها برقة بالغة: «هل ستدعينني إلى الدخول؟».

ابتلعت ريقها بتوتر فتابع يقول: «بهذه الطريقة، يمكنني انتظار توقيعك على الأوراق».

وراقبها بعناية بالغة، فرأى لمحة من الانزعاج في عينيها الزرقاوين البراقتين قبل أن تشيح بوجهها بسرعة، فابتسم، فإن قام بدوره بحذر، فلربما حصل على شيء من المتعة قبل أن تنتهي الأمور بينهما، فيحطم كبرياءها نوعاً ما.

زادت من إحكام معطفها حول جسمها. ووتر أعصابها إصرارهُ على إنهاء الأمور بينهما بسرعة. وتساءلت عما إذا كان السبب تصميمه على الزواج مباشرة.

فكرت في أن تسأله، لكنها عادت وامتنعت عن ذلك. قالت فجأة: «آه، يا لجهنم».

وأخذت تبحث بذعر في المكان المظلم عند قدميها.

- ماذا حدث؟
- حقيبة أوراقي ليست هنا!

وعادت تبحث وقد ازداد ذعرها، إذ لم تجد سوى حقيبة يدها.

- لا تخافي. لا بد أنها في مكان ما.

وأشعل مصباح السيارة ثم قال: «هل أحضرتها معك إلى المطعم».

أغمضت عينيها لتتذكر.

- نعم نعم. لقد أحضرتها معي إلى هناك.

تذكرت أنها وضعتها تحت المائدة، ثم حملتها عندما همّا بمغادرة المطعم، فقطبت جبينها.

- أظنني وضعتها على الأرض عندما ساعدني النادل على ارتداء معطفي. . لا بد أنني تركتها في المطعم، يا لي من حمقاء!

لم تستطع أن تصدق أنها قامت بذلك. فهي، عادة، نظامية للغاية،

وحاضرة الذهن، لكن ذهنها كان مع جاي. . . والطلاق. واتسعت عيناها وهي تتذكر فجأة.

ـ الأوراق التي سأوقعها لك موجودة فيها.

ضاقت عيناه: «هل فعلت هذا عمداً؟».

ورأت أن لهجته الرقيقة تختفي الآن من صوته.

ـ لا. طبعاً لا. فهي تحتوي أوراق الكمبيوتر التي عليّ أن أنجزها على تليفوني الخليوي. يا له من كابوس!

ومدت يدها إلى مقبض الباب: «يجب أن أتصل بالمطعم لأرى إن كانت هناك».

أقفل جاي باب السيارة وتبعها إلى باب المبنى الأخضر، ومن ثم إلى شقتها في الطابق الأرضي.

سرّت لأنها رتبت الشقة هذا الصباح قبل ذهابها إلى العمل. . . بدت الشقة جميلة بسجادتها المتشابكة الألوان وبأثاثها التبنّي اللون.

تناولت دليل التليفون وأخذت تقلب صفحاته بسرعة، منتبهة في نفس الوقت إلى جاي وهو يطوف الغرفة، ممسكاً ببعض الصور المؤطرة الموضوعة على رف المدفأة. كان بعضها قديماً، أخذ أثناء حياة أمها، وبعضها حديثاً أخذ يوم عرس أبيها وشيريل.

ابتعد جاي إلى الناحية الأخرى من الغرفة، فلاحظ أن هناك مطبخاً وحماماً وغرفة نوم واحدة مزدوجة. طالت نظراته لحظة إلى سريرها، الذي أضاءه النور المتسرب من غرفة الجلوس.

وتذكر كلماتها في المطعم: (الزواج أسمى وأرفع من أن ننحدر به إلى مستوى المغامرات العملية).

فتملكه الغضب وتذكر أنها لم تكن تفكر بهذا الشكل عندما منحته نفسها على السرير الزوجي.

استدار وأخذ ينظر إليها وهي تتكلم بالتليفون. لاحظ أصابعها الطويلة الرشيقة العارية من «محبس» الزواج الذي كانت تلبسه ذات يوم.

ابتسمت له وقالت وهي تغطي السماعة بيدها: «إن حقيبتي لديهم، يا جاي».

فقال ببطء ساخراً: «حسناً، هذا شيء يبعث على الارتياح!».

ـ نعم. . أليس كذلك؟

وحوّلت عينيها عنه بعدم تأكد، ثم تابعت تقول:

ـ إنهم يغلقون المطعم الساعة الثانية عشرة. فقلت لهم إنني سأذهب لإحضارها الليلة.

نظر جاي إلى ساعته: «سأحضرها لك».

ـ أحقاً؟

والتقت عيناها بعينيه شاكرة، وتساءلت عما إذا كانت حقاً تخيلت اللهجة الساخرة في صوته منذ لحظات. وتابعت:

ـ إذا أنا ذهبت، فسأضطر إلى تغيير قطاري مترو عبر المدينة.

فأومأ قائلاً: «لا مشكلة، فلن تدفعي مقابل هذا سوى فنجان قهوة ومخابرة تليفونية لأحجز غرفة في فندق».

ـ لقد قمت بصفقة، اتصل كما تريد بالتليفون.

قالت هذا وهي تخلع معطفها وتسير نحو المطبخ العصري. وعندما عادت بصينية القهوة، كان جاي يضع سماعة التليفون.

ـ هل وجدت فندقاً؟

ـ نعم، إنه الفندق الذي أقمت فيه المرة الماضية.

تساءلت عما إذا كان وحده عندما نزل حينذاك في الفندق، ترى هل أحضر معه ليزا؟ وكانت هذه سكرتيرته بالإضافة إلى شيء آخر. . كان بإمكانه أن يمزج العمل بالمتعة. . . أبعدت ذهنها عن ذلك الاتجاه، قائلة وهي تضع الصينية: «الثلج يهطل بغزارة في الخارج الآن».

ـ نعم.

ووقف ينظر من النافذة وظهره اليها: «فلنأمل ألا يحبسنا الثلج في البيت».

- لا أظن ذلك سيحدث.

وتقدمت تقف بجانبه.

- إنه لا يدوم، في العادة.

فنظر إليها وقال مداعباً يغيظها: «هذا مؤسف، لأن بإمكاننا أن ندفىء أنفسنا بجانب النار ونسترجع ذكرى الأيام الجميلة الماضية».

- أية أيام جميلة ماضية؟

قالت هذا محاولة أن تجعل صوتها وقحاً فهز رأسه واستدار يواجهها: «لم تنسيها».

- كانت لنا أوقات جميلة معاً، من المؤكد أنك. . .

شعرت بقلبها يكفّ عن الخفقان، وتوقفت أنفاسها فجأة وعيناها تلتقيان بعينيه السوداوين، ثم حوّلت نظراتها بسرعة وقد غطى الاضطراب على كل ذكرى.

مدّ يده يرفع ذقنها بإصبعه يرغمها على النظر إليه. وجعلتها لمسته ترتجف. وببطء بالغ، سمح ليده بأن تلامس جانب عنقها. هذا الإحساس أحدث رجفة حذر سرت في جسدها. شعرت بنفسها وقد تسمّرت مكانها، غير قادرة على التفكير، غير قادرة حتى على التنفس بشكل صحيح.

وشعرت بقلبها يمتلىء شوقاً، وبدفء أنفاسه. . انتقلت نظراته إلى ياقة عنق ثوبها تتأمل لون بشرتها الناصع قبل أن تعود إلى وجهها. تملكته فكرة إغوائها مبدئياً، ثم يتركها ويذهب دون أن يلقي عليها نظرة، كما كانت فعلت معه. سيكون في ذلك عقوبة نهائية لها لخرقها اتفاقهما.

نظر في عينيها. رآهما زرقاوين إلى حد لا يصدق، واسعتين إلى حد لا يصدق بالنسبة إلى وجهها الصغير. وزاد من انحنائه: «كفى يا جاي».

كان صوتها همساً. لم يكن رفضها قوياً. كان مجرد ضراعة خافتة ممزقة.

مزّق ذلك قلبه. فقطب جبينه وسقطت يده إلى جنبه وهو يتراجع، وقد ذابت فكرة العقوبة في نفسه كما كان يذوب الثلج على الرصيف في

الخارج.

- ربما معك حق.

وهز كتفيه لاوياً شفتيه بابتسامة لم تصل إلى عينيه، متابعاً: «ربما علينا أن ننسى الماضي».

فلم تجب.

- والآن، أخبريني، هل لديك رجل آخر؟

لهجة الدعابة في صوته لسعت حواسها الهشة، كالسوط.

- لا أظن أن هذا من شأنك، أليس كذلك؟

حاولت أن تتمالك نفسها. . . أن تنسى تلك الرغبة المفاجئة التي هاجمتها منذ لحظات فقط.

- مجرد فضول مني فقط.

فعادت تقول غاضبة: «هذا ليس من شأنك».

وهزت رأسها. كيف يجرؤ على المجيء بأوراق الطلاق، ثم يعذّبها بذكر الأيام الماضية، وعيناه تشعان بالإغراء؟ وتابعت تقول: «ودعني أخبرك، يا جاي هاموند، إذا جئت إلى هنا وفي نيتك استعادة ذكريات الماضي، يمكنك أن تعاود التفكير. لأنني لن أنام معك ولو كنت آخر رجل في العالم».

فابتسم، قائلاً: «هذا قول امرأة توسلت إليّ أن أتزوجها منذ عام ونصف».

زادت سخريته من غضبها: «لم أتوسّل اليك أن تتزوجني».

- لم تفعلي ذلك؟ لا بد أنها كانت امرأة أخرى جميلة لها مثل شعرك الأسود.

- أنا عرضت عليك خطة عمل.

- آه، نعم! خطة العمل تلك التي كنت تسخرين منها أثناء ذلك العشاء بلهجة مثالية، تذكرتها الآن.

شعرت بوجنتيها تلتهبان، ودمها يجري حاراً في عروقها، وهو يتابع

قائلاً بازدراء: «هل تقومين إذن بوضع خطة عمل أخرى؟ وهل كان ينبغي أن ألقي عليك السؤال بهذا الشكل؟».

قالت بعنف: «لا. ولكن لدي رجل. رجل يعني لي الكثير».

فقال بهدوء بالغ بعكسها هي: «تهاني! وأتمنى لك السعادة البالغة يا إليزابيث. كل ما أتمناه لك هو السعادة».

أرادت أن تقول له، هل لهذا أنشأت علاقة مع سكرتيرتك من خلف ظهري؟ لكنها أمسكت لسانها، فهي لن تحط من قدرها أبداً بمثل هذا القول، وساد بينهما الصمت لحظة، قالت بعدها: «الأفضل أن تذهب الآن».

فأومأ يقول: «سأحضر لك حقيبة أوراقك ثم أضعها لك في مكتبك فتحصلي عليها في الصباح».

سارت إلى الباب معه. وعندما رأته خارجاً، زاد ندمها لغضبها. وما هي الفائدة من الكذب بالنسبة إلى حياتها الخاصة؟ إنه لا يهتم مثقال ذرة بمن لها علاقة، أوليس هو الساعي إلى الطلاق!

لم تكن تريد أن يعلم أنها تحبه. ولا تريد أن يعلم بأن ليس هناك من احتل مكانه، لا في قلبها ولا في سريرها، وقالت له بجفاء: «اترك حقيبتي في قسم الاستقبال في مكتبي عند الصباح».

ـ لا بأس. تصبحين على خير يا إليزابيث.

ـ تصبح على خير.

وأخذت تنظر إليه وهو يسير إلى سيارته ويستقلها ثم يبتعد، ولم يبق سوى آثار العجلات على الثلج الأبيض. وسألت نفسها، هل هذا كل شيء؟ نهاية الزواج؟ آخر مرة ترى فيها جاي هاموند؟

* * *

٣ ـ امرأة الثلاثين...

كان جاي عالقاً في زحمة السير عندما رن التليفون فقطب جبينه ونظر في أنحاء السيارة مشوّش الذهن. من أين يأتي ذلك الرنين؟ فهو لا يحمل تليفونا نقالاً معه، وبعد لحظة أدرك أنه آت من حقيبة إليزابيث.

حوّل السيارة إلى جانب الطريق، ثم فتح الحقيبة ليجيب عن المخابرة. ولكن ما إن أخرج الهاتف، حتى توقف الرنين، وتمتم (تباً لذلك!) وأوشك أن يعيده إلى مكانه عندما عاد يرن ثانياً. فأجاب:

ـ مرحباً، أنا لوسي. ما زلنا على موعدنا الليلة، أليس كذلك؟

كان صوتها دافئاً وجذاباً، فأجابها هازلاً: «لا أدري. هذا يعتمد على المكان الذي ستأخذينني إليه».

فاضطرب صوتها وقالت: «أظن أن الرقم خطأ».

ـ هل تريدين إليزابيث؟

ـ نعم.

ـ إذن فالرقم ليس خطأ، وإنما الشخص فقط! أنا جاي... زوج إليزابيث.

أجابت بصوت حائر يقظ: «أحقاً؟ هل عدتما إلى بعضكما البعض؟ ما أجمل أن أسمع هذا! أحب النهايات السعيدة! متى جئت إلى لندن؟ لم تخبرني إليزابيث بشيء!».

ـ جئت بالأمس...

ـ حسناً... هل تعلم أن اليوم هو عيد ميلاد إليزابيث؟ سنقيم لها

حفلة مفاجئة الليلة بعد العمل، في فندق «برج مايفير». سآتي لأخذها من مكتبها الساعة السادسة والنصف. . هي تظن أننا سنذهب لتناول شراب ما وهكذا ستكون الحفلة مفاجأة كبرى لها. . . حسناً، أرجو أن تكون كذلك. إنها لا ترتاب في شيء، أليس كذلك؟

ـ لا أعتقد!

مضت لحظة صمت كاد جاي يسمع أثناءها صوت تفكيرها فقال بفتور: «بما أننا نقوم بهذا الحديث الودي، فهلاً أخبرتني عن الرجل الذي تقيم معه إليزابيث علاقة؟».

ـ أي رجل؟

ـ إنها تقول إنها على علاقة برجل ما.

سمع المرأة تبتلع ريقها متوترة، وكأنها أدركت أنها اقترفت غلطة كبرى.

ـ إذن لم تعودا إلى بعضكما البعض، أليس كذلك؟

ـ ليس تماماً، ولكن لا تقلقي بهذا الشأن، يا لوسي! سرّك آمن معي. شكراً على الدعوة.

* * *

وضع روبرت رزمة الأوراق على المغلف السميك وهو يقول باسماً: «هو ذا التقرير الذي تريدينه. ابتهجي يا إليزابيث ولا تدعي الكآبة تبدو عليك بهذا الشكل. فقد لا يحدث أبداً ما تفكرين فيه!»

ـ أكره هذا القول عندما أسمعه.

فقال ضاحكاً: «نعم، وهكذا أنا».

كانت تحب روبرت كأخ لها وكان أصغر منها بعامين، ظريف الشخصية ساعدها دائماً. كانتْ تعلم أنه يكنّ لها معزّة خاصة إذ كان يدعوها غالباً للخروج معه ولكن رغم استلطافها له، لم تكن تشعر نحوه بأي انجذاب.

ربما عليها أن ترغم نفسها على الشعور بشيء ما نحوه. وفكرت فجأة

في الخروج معه ما إن يدعوها. ولكن روبرت هرع، لأول مرة، خارجاً من دون أن يدعوها للشراب كعادته، وتنهدت.

أمسكت بالتقرير الذي أحضره، وكان تحته المغلف السميك.

ترك جاي لها حقيبة أوراقها هذا الصباح في مكتب الاستقبال. وها النهار يشرف على نهايته وهي لم تفتح المغلف، أو تتناول طعام الغداء، فقد كان نهاراً قلقاً أكثر من العادة. فحدثت نفسها أنها طريقة رائعة لقضاء عيد ميلادها، ومع ذلك، يمكنها على الأقل، أن تتطلع إلى جلسة هادئة تشرب فيها شيئاً مع لوسي بعد العمل.

انتهى آخر اجتماع هذا النهار، وكانت الساعة السادسة والنصف تقريباً. فأسرعت إلى غرفة المعاطف حيث غيرت بلوزة العمل إلى بلوزة متألقة عالية العنق، وأصلحت زينتها، ثم رفعت شعرها إلى الأعلى وانحنت تتفحص مظهرها.

لم يكن مظهرها رائعاً لكنه كان مناسباً. ارتدت سترتها السوداء، ثم حملت حقيبة يدها وفي داخلها أوراق الطلاق، وخرجت من المبنى. لم تر أحداً من زملائها. . يبدو أنهم خرجوا جميعاً باكراً.

لم تكن لوسي في مكتب الاستقبال. لكنها تركت لها خبراً يقول إنها ستلتقيها أمام فندق «برج مايفير».

وأخذت إليزابيث تفكر في أنها قد تجد لوسي تنتظرها داخل الردهة عند وصولها. لوسي في التاسعة والعشرين، شقراء وجذابة للغاية، وهما صديقتان منذ دخلت إليزابيث شركة الإعلانات منذ عام ونصف.

عانقتها لوسي وطبعت على خدها قبلة، وقالت مازحة: «عيد ميلاد سعيد، أيتها المرأة السيئة!».

أجابتها إليزابيث ضاحكة: «انتظري حتى يحين دورك».

ثم أضافت وهي تتأبط ذراع صديقتها.

ـ أودّ أن أغتنم هذه الليلة للاحتفال! ولكن هلاً قلت لي ما الّذي تفعله هنا؟

- قيل لي إنه تمّ استحداث نادٍ صغير هنا، سنجربه!

فقطبت إليزابيث جبينها، فهي لم تسمع عن نادٍ جديد هنا، وسألتها: «لا أظنك تقودينني معصوبة العينين إلى شيء ما، أليس كذلك؟».

وتملكها الشك فجأة وهما تقفان أمام باب، فقالت لوسي لها مازحة وهي تفتح الباب وتدعوها للدخول أولاً: «وهل من الممكن أن أفعل بك شيئاً كهذا؟».

ودخلت إليزابيث مقطبة الجبين إلى غرفة مظلمة.

- مفاجأة.

وشعّت الأنوار، وارتفعت مجموعة أصوات بنشيد (عيد ميلاد سعيد) فنظرت في أنحاء الغرفة وقد أصابها الدوار، فيما تقدم منها أصدقاؤها وزملاء العمل يصافحونها ويتمنّون لها عيداً سعيداً. وخلع شخص ما عنها سترتها، وقال لها رئيسها جون، بابتسامة واسعة: «عمر مديد وسعيد. آسف لأنني أجهدتك اليوم بالعمل!».

- لا بأس.

قالت إليزابيث هذا وهي لا تدري إن كانت مسرورة أم مذعورة بكل هذا الاحتفال. ثم توترت أعصابها وهي ترى راية معلقة فوق مائدة الطعام، كُتب عليها (مبروك عيدك الثلاثون). تمتمت تقول لصديقتها: «سأقتلك، يا لوسي، ولكن شكراً على كل حال».

ثم، رأت جاي واقفاً في آخر الغرفة، فخفق قلبها. كان يتحدث إلى سكرتيرتين من مكتبها وعندما التقت أعينهما من بعيد، أحنى رأسه لها.

سألت بذعر: «ما الذي يفعله هنا؟».

التفتت لوسي حولها وسألت: «من؟».

أجابتها إليزابيث: «جاي!».

ثم سمرت عينيها عليها، فبدا الذعر على لوسي: «آه، يا إليزابيث، أنا آسفة جداً! لم أظنه سيأتي حقاً...».

- لكنه أتى!

لاحظت التعبير على ملامح جاي وهو يقترب منها. وتساءلت بذعر عمّا إذا كان سيسألها عن أوراق الطلاق تلك. من المؤكد أن جاي أكثر حساسية من أن يفعل هذا في حفلة عيد ميلادها. وحين دنا منها، قال لها: «عيد ميلاد سعيد، يا إليزابيث».

- شكراً!

قالت هذا وهي تحاول أن تشيح نظرها عن بذلته المتقنة التفصيل، وربطة العنق الملونة. فقد بدا لها بمظهر ممتاز رغم علمها أنه دوماً كان كذلك. وسألته: «أعتذرُ على طرحي هذا السؤال، ولكن هلاّ فسّرت لي ما الذي أحضرك إلى هنا؟».

- دعتني لوسي!

وألقى إلى لوسي نظرة جانبية، فتملكت الحيرة إليزابيث وهي ترى احمرار وجه صديقتها، عندما التقت أعينهما. أتراها غزوة أخرى منه؟ وكيف ومتى حدث ذلك؟ ودار رأسها.

- أظنك لوسي.

ألقى هذا السؤال على لوسي التي اعتذرت لأليزابيث: «تحدثت معه خطأً في تليفونك الخليوي».

فقال جاي بابتسامة عريضة: «نعم، دار بيننا حديث حسن حينذاك، أليس كذلك؟».

وأبدت لوسي لهفة للابتعاد عنهما فسألت، محاولة أن تغيّر الموضوع: «أتريدين عصيراً، يا أليزابيث؟».

وعندما توارت بين الجمع، عادت إليزابيث وقالت ببرودة لجاي: «لقد أربكتها!».

- هيا، يا إليزابيث! لكان الوضع مؤلماً لو لم أحضر لأتمنى لك عيداً سعيداً.. أليس كذلك؟ على كل حال، لم أحب طريقة افتراقنا الليلة الماضية.

فسألته ببراءة: «وما هي تلك الطريقة؟».

ابتسم وعيناه على جسمها الرشيق: «قد يصعب عليك التصديق يا إليزابيث، لكنني لا أحب أن أبقى معك في نزاع مستمر!».

ـ لا تحب ذلك؟ حسناً، هذا لم يعد مهماً عندي.

وشعرت برجفة من الحذر تجتاح جسدها، ودار صراع بينها وبين الضعف الذي تشعر به في داخلها. فتذكّرت السعادة التي كانت تغمرها ذات مرة بين ذراعيه وهو يحتضنها بشدة.

ـ لقد أحضرت لك هدية!

وناولها علبة مجوهرات سوداء صغيرة ملفوفة بورق مذهب، كتب عليه «عيد ميلاد سعيد».

نظرت إليها متشككة قبل أن تنظر إليه بعينين ضيقتين، فقال ضاحكاً: «حسناً، افتحيها. ليست قنبلة موقوتة».

أخذتها بيد غير ثابتة، ثم فتحتها. كانت الهدية عبارة عن سلسلة ذهبية يتدلّى منها حجر توباز مذهل. وأدركت إليزابيث مما هو مكتوب على العلبة، أنه اشتراها من الجزر الكاريبية.

ـ إنها رائعة الجمال.

وقطبت جبينها محاولة أن تفهم هذا، وقالت: «لكن لم يكن هناك من حاجة لأن تحضرها لي!».

أغلقت العلبة: «سأوقع الأوراق، لذا توقف عن إظهار هذه العواطف الزائفة».

وقبل أن يجيبها جاي، قاطعهما حضور روبرت الذي قبلها على خدها قائلاً: «عيد ميلاد سعيد».

فابتسمت للرجل: «شكراً!».

ورأته ينظر إلى جاي منتظراً أن تعرفهما ببعضهما بعضاً. وقبل أن تتمكن من قول شيء، مدّ جاي يده قائلاً ببساطة: «مرحباً. أنا زوج إليزابيث».

حدّق روبرت إليه بدهشة واضحة، وفوجئت إليزابيث أيضاً. لماذا

قدّم جاي نفسه بهذا الشكل؟ قد يكون زوجها قانونياً، ولكن ليس له الحق أبداً في أن يقول هذا بين الناس!

ورمقها بابتسامة جعلت خفقات قلبها تتسارع ولكن صوت روبرت جاء ليلجم ما كانت تشعر به ويعيدها إلى الواقع: «لم تخبريني بأنك متزوجة، يا إليزابيث!».

ـ ألم أخبرك؟

وحولت عينيها عن جاي، وعندما رأت الفزع على ملامحه، أشفقت عليه، فقالت: «قريباً سيصبح جاي طليقي».

فبدا الارتياح على وجهه: «حسناً، فهمت! أعتقد أن بقاءكما صديقان هو أمر جيد!».

تمتم جاي بحدّة: «أحقاً؟ أظنك على صواب!».

عادت إليزابيث تنظر إليه، فبدت عيناه السوداوان باردتين وهما تلتقيان بعينيها، وبدا غاضباً لكنّه سرعان ما ابتسم.

أخذت الموسيقى تعزف مؤذنة ببدء الحفلة، وانخفضت الأنوار، وسمعت صوتاً يقول لها: «هيا، يا إليزابيث، تعالي نرقص!».

نظرت حولها، فرأت لوسي تشير إليها من حلبة الرقص، فناولت جاي علبة المجوهرات، بابتسامة مؤدبة، ثم اتجهت نحو صديقتها.

ـ آسفة جداً، يا إليزابيث! ولكن صدقيني، لم أظنه سيحضر.

ـ هذا غير مهم، انسي الأمر!

وضع جاي العلبة في جيبه، ثم أخذ يراقب إليزابيث من خلال الظلال. لقد هزل جسدها منذ تركته. تنقلت عيناه من ساقيها الطويلتين في البنطلون الأسود، إلى بلوزتها الفضية المثيرة.

شعر بالرغبة تتملكه، تماماً كما حدث عندما رآها وهي خارجة من مكتبها. كانت دوماً امرأة جذابة. إنما الآن... باتت تخطف أنفاسه.

سألت «روث» إحدى السكرتيرتين اللتين كانتا تتحدثان إلى جاي، إليزابيث وهي تراها في حلبة الرقص.

- من هو ذلك الرجل؟ إنه رائع.

- أتظنين ذلك؟

لم تجد إليزابيث حاجة إلى سؤالها عمن تتحدث.

- هل تمانعين إذا طلبت منه أن يخرج معي، أم أنكما. . .

فأجابتها إليزابيث بمرح: «لا . . . افعلي ما تريدين!».

لم تضيّع «روث» الوقت، بل اندفعت باتجاه جاي والعزم على وجهها.

تغيرت الموسيقى، فوضعت لوسي يدها على ذراع إليزابيث. ثم أخذت تنظر إلى آخر القاعة حيث أمسكت روث بذراع جاي وقادته إلى حلبة الرقص. فسألتها لوسي: «هل هذا يضايقك؟».

أجابت إليزابيث بوجه مشرق: «لا. طبعاً لا».

خافت أن يكون وجهها مشرقاً أكثر مما يجب فيكشف عمّا في داخلها!

- لِمَ تعتقدين أنه جاء إلى هنا الليلة؟

ابتسمت إليزابيث ابتسامة واسعة وقالت: «لأنك دعوته».

- نعم. . . ولكنني دعوته لأنني ظننتكما عدتما إلى بعضكما البعض. . . كان ذلك سوء تفاهم!

- لا يهتم جاي أبداً بتقاليد المجتمع، فهو يعتقد أن مجيئه إلى حفلة عيد ميلادي أمر عادي. وهو يفترض أنه إذا استطاع أن يبقي المودة بيننا، فلن أجعل الطلاق صعباً عليه.

- ما الذي حدث بينكما، على كل حال؟ لم تحدثيني قط عن أسباب فشل زواجكما.

ترددت إليزابيث. فقالت لها لوسي: «إذا كنت تفضلين ألاّ تخبريني، فسأتفهم ذلك!».

هزت إليزابيث رأسها: «لا . . . لا بأس في ذلك! لقد تغلبت على الأمر على كل حال».

ولكن رغم كلماتها هذه، لم يكن صوتها ثابتاً تماماً.

- لقد رأيته مع سكرتيرته، ويبدو أنهما كانا على علاقة منذ فترة.

كشرت لوسي: «أوه. . آسفة يا إليزابيث! ما كان يجدر بي أن أتدخل في أمورك الخاصة!».

هزت إليزابيث كتفيها وكأن الأمر لا يهمها، ولكن ذكرى ليزا وهي تنام بين ذراعي جاي، ما تزال تؤثر فيها.

- حسناً. . . لم يقم زواجنا على الحب منذ البداية وهكذا خرجت مرفوعة الكرامة، فأنا التي انهيت الزواج، وهو، حتى الآن، لم يدرك أنني علمت بعلاقتهما، أو أنني رأيتهما معاً.

فابتسمت لوسي: «وبهذا جرحته في رجولته، هذا حسن!».

- لا أظن أنّ بإمكان أحد أن يجرح كرامة جاي.

وإذا بروبرت يتقدم نحوها: «هل تودين أن ترقصي، يا إليزابيث؟».

كانت على وشك الرفض، عندما لاحظت الطريقة التي يرقص بها جاي مع «روث». كانت ذراعاه حول كتفيها يشدانها إليه بقوة. فغضبت وهي تراه يبتسم للشقراء الجميلة. سمعت روبرت يقول لها: «إليزابيث، ماذا قلت؟».

فأجابته بسرور: «نعم، لم لا؟».

مرّت السهرة والناس يتمنون لها السعادة أو يطلبون منها الرقص. حتى «كولين» المتعصب طلب منها الرقص، كما طلب روبرت منها الرقص مرة أخرى ولم تستطع أن ترفض.

جذب كولين مقعداً إلى جانبه عندما رآها قادمة وهو يقول بمودة: «إنها حفلة رائعة، يا إليزابيث، ماذا تتناولين؟».

فنظرت إليه بدهشة فلم يسبق أن كان كولين المتعصب بمثل هذا اللطف. في الواقع لم تكن تريد تناول شيء ولكنها طلبت كوباً من الليموناضة كيلا تكون جافة معه فقال لها رئيسها: «كان جاي يخبرنا لتوّه عن اليخت الذي يصممه لسباق السفر حول العالم. يبدو أنه سيكون ثورة في عالم التصميم».

- أحقاً؟

وتلاقت عيناها بعيني جاي وهي تتمتم بجفاء: «شيء هام حقاً».

أومأ جون بحماسة غير منتبه إلى السخرية في صوتها، ثم التفت إلى جاي: «كما كنت أقول، إذا كنت بحاجة إلى بعض الإعلان لدعم اليخت، فاتصل بي».

- سأفعل يا جون، شكراً!

تقابلت عينا إليزابيث بعيني جاي.. لم تكن تريد أبداً أن يأتي جاي إلى المكتب. لم لا يقصد مكاناً آخر ليصمم إعلاناً له؟ تجاهل استياءها وفجأة قال جون وهو ينظر إلى الساعة في يده: «حسناً، الأفضل أن أذهب. لقد وعدت زوجتي بألاّ أتأخر».

فقال له كولين: «سأوصلك بسيارتي».

وذهب الرجلان، فبقيت إليزابيث مع جاي، تفصل بينهما كراسي خالية، فنهرته قائلة: «ما الذي تهدف إليه بالضبط؟».

- لا أدري ماذا تعنين؟

كانت عيناه مليئتين بالبراءة، لكن هذا لم يخدعها لحظة واحدة.

- بل أنت تدري! ما كان يجدر بك أن تأتي إلى هنا الليلة! وما كل ذلك الهراء عن التعامل مع شركتنا؟

- لم أكن من اقترح ذلك بل كولين.

- لا أظنك تفكر حقاً في العمل مع شركتنا، أليس كذلك؟

فهز كتفيه: «ولِمَ لا؟ قد يعود الإعلان عن اليخت بالفائدة على حوض بناء السفن. اقترح كولين تصوير فيلم قصير عنه لمعرض «إيرل كورث».

فقالت بخشونة: «أنت هنا لأوقع أوراقك وليس لتبدأ بعقد اتفاقية للإعلان».

- ولم لا يمكنني القيام بالإثنين؟

- لأنني لا أريدك بالقرب مني لفترة أطول مما تفرضه الضرورة!

قال معاتباً: «لِمَ تلك القساوة، يا إليزابيث؟ ألا ترين أن أقل ما يجب

علينا هو أن نكون متحضرين تجاه بعضنا البعض؟ على كل حال، لا يمكن إلقاء اللوم في فشل زواجنا على أيّ منا! فأنت لم تكوني تريدين الزواج بي، بل هي فكرة أبيك! وأنت التي قررت أن تتركيني، وقلت لي (لا أستطيع العيش في الكذب أكثر من ذلك!)».

شعرت بقلبها مثقلاً. كان ذلك بالضبط ما قالته، لقد تذكرت تلك الكلمات المتوترة، ونظرة الدهشة على وجهه.

- دعنا نواجه الحقيقة. لقد فشل زواجنا.

هذا ما قالته حينذاك وأجابها عند ذاك بهدوء: «فشل؟ ولكن لديك حصة في أعمال أبيك الآن، أليس هذا ما كنت تريدينه؟».

سألها الآن فجأة فأعادها إلى الحاضر: «ألا يمكننا أن نصبح أصدقاء فقط؟».

فقالت وهي تشيح بوجهها: «وما الفائدة؟».

فقال برقة: «أنا واثق من أن أباك لم يكن يريد لنا أن ننتهي عدوين».

عندما عادت تنظر إليه، كانت عيناها تتألقان بالدموع فقالت وهي ترتجف: «لا تأتِ على ذكر أبي في هذا الأمر».

- لقد فات الوقت قليلاً، أليس كذلك؟ إنه سبب كل هذا.

لم تجب، فتقدم يجلس على الكرسي الخالي بجانبها.

- لو لم يضع ذلك الشرط في وصيته، لما تزوجتني. ولهذا لا تلوميني إذا لم يعجبك الوضع، لقد حاولت جهدي!

- قمت بعمل جيد نتيجة هذه الاتفاقية وحصلت على شريكة أطلقت لك الحرية في إدارة العمل حسب رغبتك.

- إسمعي يا إليزابيث، لقد استثمرت في هذا العمل الكثير، ليس من الوقت فقط بل من المال كذلك! كان يمكنني القيام بذلك مع «شيريل» بصفتها شريكتي منذ البداية، فلا أضطر إلى الزواج بك.

- لا. لم تكن مضطراً لذلك.

وحوّلت إليزابيث نظراتها عنه.

ـ ولكن ربما ما كانت زوجة أبي لتعطيك الحرية في العمل كما فعلت أنا!

ـ قد يكون هذا صحيحاً. الحقيقة هي أنني لم أحب دوماً الشراكة. هذا هو سبب رفضي لأن أكون شريكاً في العمل منذ سنوات عندما عرض والدك عليّ ذلك.

ـ ولماذا قبلت أن تشاركني إذن؟

ـ حسناً، أنت عرضت عليّ نوعاً مختلفاً من المشاركة، أليس كذلك؟

كان صوته أبحّ بطيئاً وهو يلقي عليها نظرة جانبية، نظرة جعلت رجفة تتسلل في كيانها حاولت أن تقنع نفسها بأن هذا الشعور مجرد تخيّل، تماماً كما فعلت الليلة الماضية، لكنها علمت في أعماقها أن ذلك ليس صحيحاً. وأزعجها أن تعلم أنه ما زال قادراً على إشعال أحاسيسها!

ـ لقد شاركتك لعبتك لأنني تصورت أنك تستحقين حوض السفن، ولم أوافق أباك على وصيته تلك. وكذلك كنا صديقين، فظننت أن زواج مصلحة ربما ينجح بيننا. فقد كان زواجي الأول قائماً على العواطف المحمومة فلم ينجح.

عضت شفتها بقوة محاولة عدم الاكتراث لما يقوله، تريد عدم الاهتمام بذلك، بينما تابع يقول:

ـ وعلى كل حال، مهما كان السبب، لقد جاريتك في فكرتك تلك. والآن أنت مدينة لي.

نظرت إليه بعينين متسعتين: «أنا لا أدين لك بشيء!».

ـ بل تدينين! لقد بنيت الحوض حتى أصبح كبيراً جداً. كنت أرسل إليك مبالغ سخية كل ثلاثة أشهر، والآن جاء دورك لتردي لي شيئاً.

تسارعت نبضات قلبها وقالت: «مثل ماذا؟».

ـ حسناً أن تكوني مهذبة معي على الأقل... وأن توقعي الأوراق التي أرسلتها لك.

ـ لقد أخبرتك بأنني سأوقعها.

ـ لكنك لم تفعلي هذا بعد، أليس كذلك؟

... لماذا لم توقعها؟ ترجع صدى هذا السؤال في أعماقها. لمَ لم توقّعها؟ أفعلت ذلك رغبة منها في عدم تيسير الأمور له؟... خصوصاً إذا كان سيتزوج ليزا.

قالت بغضب: «لا أستطيع أن أصدق أنك تتشاجر معي على ذلك في حفلة عيد ميلادي».

اعترف بأسف: «ولا أنا أستطيع ذلك!».

دهشت للهجته، والرقة في عينيه.

ـ لم أحضر إلى هنا لكي أتشاجر معك، يا إليزابيث. جئت لأنني أردت أن نصبح صديقين، فما زلت تعنين لي الكثير.

قال ذلك برقة بالغة فشعرت بقلبها يتوقف عن الخفقان، وحدثت نفسها بسرعة بأنه إنسان قذر أناني، يشق طريقه دوماً إلى أي شيء بالرقة واللين... حتى الزواج.

كانت الموسيقى هادئة عندما قاربت السهرة على نهايتها، ونظر جاي إلى حلبة الرقص، ثم سألها فجأة: «أتحبين أن ترقصي؟».

ـ لا، شكراً!

ـ حتى ولا إكراماً لأيامنا الماضية؟

فقالت بغضب بالغ وهي تتذكر حديثهما الليلة الماضية: «لا أريد ذلك خصوصاً لأجل أيامنا الماضية!».

ورأى لمعان التمرد في عينيها فابتسم: «لا بأس. فليكن لأجل أيامنا الجديدة».

ومدّ يده يمسك بيدها، وقبل أن تدرك ما تفعل، سمحت له بأن يقودها إلى الحلبة. يا له من جنون! أخذت تفكر في ذلك وهو يطوق خصرها بذراعيه ويجذبها إليه.

وحنى رأسه نحوها ثم همس في أذنها: «حان الوقت للرقص مع بطلة الحفلة، فقد رقص معها كل شخص آخر!».

سمحت لنفسها بالميل عليه، فأرسلت رائحة عطر بعد الحلاقة المألوفة لديها رعشة في جسدها، وشعرت بأنفاسه على أذنها.

ـ لطالما أحببت الرقص معك! يبدو أن جسمك وجسمي ينسجمان معاً.

ولكن كان صوتاً آخر يحدثها في أعماقها. ابتعدي عنه يا إليزابيث. لا تدعيه يسحرك.

واستغربت أن تشعر، هي التي تكرهه كثيراً، بكل هذا الأمان بين ذراعيه، كأن ذراعيه هما مكانها الحقيقي! ولكنها، شعرت بقربه أيضاً بموجة من المشاعر المألوفة تتملكها، مشاعر قوية مفاجئة ساحقة، كرهت نفسها لشعورها هذا لكنها لم تستطع تجنّبه.

وتمتمت تقول: «أظنني متعبة، أشعر بالدوار».

ـ أحقاً؟ هل سيغار حبيبك؟

لم تجب، فسألها: «من من هؤلاء الرجال حبيبك؟ كنت أحاول معرفة ذلك طوال الوقت!».

ـ هذا ليس من شأنك!

ـ وقد استبعدت روبرت.

فنظرت إليه: «لماذا؟».

ـ روبرت رجل مستقيم وحساس.

ـ إنه أحسن منك بكثير!

فقال ضاحكاً: «أحقاً؟ ولكنه ليس حبيبك، أليس كذلك؟ إنه ليس النموذج الذي يفتنك».

ـ وما أدراك بالنموذج الذي يفتنني؟

فابتسم: «أظنني مؤهلاً لذلك في هذا الموضوع، فقد عشنا ستة أشهر زوجاً وزوجة معاً!».

شعرت بوجهها يحمر تحت نظراته، وبذلت جهداً كبيراً للابتعاد عنه، ثم قالت: «أريد أن أذهب إلى بيتي!».

فأومأ ونظر إليها وهي تبتعد عنه.

كانت لوسي جالسة في الزاوية تتحدث إلى روبرت حين توجهت إليزابيث نحوهما. وقالت عندما رأت روبرت يفسح لها مكاناً حول المائدة: «أنا ذاهبة إلى البيت لأنني مرهقة. شكراً على هذه الحفلة الجميلة!».

فابتسمت لها لوسي وقالت: «استمتعي ببقية سهرتك!».

فأجابت إليزابيث ضاحكة وهي تحمل سترتها وحقيبة يدها: «بماذا... ؟ بقراءة أوراق الطلاق؟ إلى اللقاء صباحاً يا روبرت».

كان الجوّ بارداً في الخارج. رفعت إليزابيث يدها لتوقف تاكسي، لكن السائق كان مشغولاً فلم يقف.

لم يدم الثلج الذي تساقط الليلة الماضية، لكنه جعل الهواء قارساً للغاية. وارتجفت في سترتها الرقيقة وأوشكت على العودة إلى الفندق لتطلب تاكسي بالتليفون، عندما رأت سيارة جاي تتباطأ لتقف أمامها. فتح لها الباب، قائلاً: «أنا ذاهب في اتجاه بيتك».

فترددت.

ـ حسناً، كما تشائين!

ومد يده ليغلق الباب، لكنها أمسكت به قبل أن ينغلق، ثم قالت وهي تدخل إلى دفء السيارة: «لقد أقنعتني حقاً».

فتمتم هازلاً: «أنت دوماً غريبة الأطوار».

ـ وأنت دوماً تضايقني بغطرستك. أين «روث»؟ أما كان يجدر بك أن تعرض عليها إيصالها إلى بيتها؟

ـ ومن هي «روث» هذه؟

ـ المرأة التي رقصت معها في بداية السهرة!

فابتسم: «آه! تلك... آكلة الرجال، كما يقولون!».

تذكرت ليزا فتمتمت: «تحب النساء بذلك الشكل. لقد سبق لك أن صادقت الكثيرات من «آكلات الرجال» في زمانك!».

- أحقاً؟ ومن هن؟

أرادت أن تقول: (ليزا كننغهام) مثلاً. لكنها لم تستطع حتى أن تذكر اسمها.

استقرت عيناها على جانب وجهه الوسيم، وسألته فجأة: «هل تتذكر تلك الفتاة التي كنت تخرج معها عندما تعرفت إليّ؟».

فهز رأسه نفياً.

- بل تتذكرها. فجسمها ينافس جسم «مادونا» وكان حذاؤها العالي الكعب يثير الضجة في كل مكان.

فضحك: «يبدو أنها كانت ممتعة، لكنني لا أتذكرها».

- لا بد أنّ ذلك كان منذ زمن بعيد. . . ماذا. . . أربع سنوات.

هل مرت حقاً أربع سنوات منذ تعرفت إلى جاي هاموند؟ بدا لها وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد، وكأن جاي كان دوماً في ذهنها وفي قلبها، وقالت: «نعم. . . منذ أربع سنوات، كان ذلك قبل أن يتزوج أبي «شيريل». كان يمضي الكثير من وقته في حوض بناء المراكب، وكنت دوماً قلقة عليه».

- أظنه بقي أرمل لمدة طويلة، أليس كذلك؟

فأومأت إليزابيث. لقد ماتت أمها وهي في سن المراهقة، إثر حادث سيّر مروّع. وقد أثر فقدان والدتها كثيراً في أبيها، فكانت تسعى جاهدة للعناية به.

- من حسن الحظ أنه كان هناك ما يشغله، وإلا لتحطم تماماً.

فقال جاي: «لقد أخبرني بأنك الشخص الذي ساعدته على البقاء متمالك الأعصاب. قال لولا قوتك وعزيمتك، لما استطاع اجتياز تلك المحنة».

- لقد بالغ أبي إذ وصفني كذلك.

- لا أظن ذلك، فأنت شخص كفؤ، وقادر. صحيح أنني لم أعرفك إلا منذ أربع سنوات، لكنني كنت أراقبك أحياناً عندما كنت تأتين إلى

الحوض أثناء العطل الأسبوعية لكي تساعدي أباك. كنت دوماً توفرين له المتعة والسرور. . كانت الفوضى تعم مكتبه لكنه كان يغدو ضاحكاً مستبشراً ومنظماً حين تتركينه.

فابتسمت: «كان نكداً ضيّق الخلق أحياناً، أليس كذلك؟ لكنه، على الأقل، شعر بالسعادة عدة سنوات مع شيريل قبل أن يموت».

وسكتت، فنظر إليها. بدا وجهها شاحباً وعيناها معتمتين. وبدت امرأة قوية لا تحتاج لأحد. لكن ذلك لم يكن سوى قناع تختفي خلفه امرأة هشة ضعيفة، يرغب في احتضانها.

- ما زلت تفتقدين أباك، أليس كذلك؟

أخذت نفساً عميقاً ثم نظرت إليه بعينين لامعتين. وقالت ببشاشة: «طبعاً أفتقده، لكن الحياة مستمرة».

- نعم. . . وها هو القناع يعود إلى مكانه بحزم.

فقطبت جبينها: «ماذا؟ أي قناع؟».

- دعينا من ذلك، وتابعي كلامك. من هي تلك المرأة التي كنت تذكرينني بها منذ لحظات؟ المرأة التي كنت أخرج معها عندما تعارفنا أنا وأنت، لأول مرة؟

- لا أذكر اسمها. كل ما أتذكّره هو قول أبي (يجب أن تأتي إلى الحوض يا إليزابيث. وتتعرفي إلى مصمم المراكب الجديد، جاي، إنه رجل طيب حقاً وموهوب جداً)، وهكذا نزلت إلى حيث كنت أنت وحمراء الشعر الرائعة تلك في غرفة مكتب أبي.

- آه، لقد تذكرتها الآن. . .

- أظن أن اسمها كان سونيا. . . أم لعلها أوليفيا؟

وضحك.

- كانت جالسة على مكتبك الخاص، وبدا واضحاً أنكما كنتما في وضع حميم.

- آه، لا! أعتقد أنك تبالغين!

وعاد يضحك، فقالت ساخرة: «لا، أنا لا أبالغ. كما لا أصدق أنك نسيت اسمها».

- كان ذلك منذ وقت طويل، يا إليزابيث.

وعندما رأى الدعابة على وجهها، ضحك.

- لا يمكنك أن تتوقعي مني أن أتذكر أسماء كل النساء اللاتي عرفتهن حينذاك، فقد كن كثيرات. وكنت حديث العهد بالطلاق، لذا أخذت أعبث.

نعم، لقد عبث كثيراً في تلك الفترة. حوّلت إليزابيث عينيها عن جانب وجهه الوسيم وأخذت تنظر من النافذة، تذكرت يوم دعا صديقتها «جوان» أمامها إلى حفلة راقصة، ممّا جرحها كثيراً! لاحظت حينذاك إحدى صديقاتها، «دوروثي»، خيبة الأمل على وجهها، فقالت لها بإيمان راسخ: «لو كنت مكانك لما اهتممت بهذا. فجاي يجتاز المرحلة الأولى».

سألتها متعجبة «المرحلة الأولى من ماذا؟».

- المرحلة الأولى من نسيان طلاقه، وذلك بأن يخرج مع كل امرأة يجدها.

- وما هي المرحلة الثانية؟ أن يأخذ كل امرأة يجدها إلى سريره؟

فضحكت دوروثي: «ربما شيء كهذا. أنصحك بأن تبتعدي عن طريق هذا الشاب إلى أن يجتاز المرحلة الخامسة. سيستغرق ذلك بعض الوقت. فهو يجتاز مرحلة الطلاق الصعبة، لقد هربت زوجته مع أحب صديق لديه، وهو يريد أن ينسى ذلك. خذي هذه النصيحة من شخص خبير».

وهكذا قبلت نصيحة دوروثي واكتفت بأن تكون صديقته. وكان هو من ناحيته صديقاً جيداً لها. . وكان عليها أن تقتنع بذلك، أن تعرف حدودها. ولكن، لا. . لقد استعجلت الأمور، فوقعت في المشكلة فلطالما تاقت إلى تحقيق ما ترغب فيه، ورأت في وصية أبيها العذر المناسب.

- هل ترى طليقتك، هذه الأيام؟

- لا. ما زالت «سوزي» في (بورت أنطونيو) لكنني سمعت أنها انفصلت عن دايفيد.

سألته بحذر: «أهو الرجل الذي عاشت معه بعد انفصالكما؟».

لقد حاولت إليزابيث جرّ جاي، عدة مرات، للحديث عن موضوع زواجه الأول، إلا أنه لم يتحدث كثيراً عنه.

وأجابها الآن بابتسامة واسعة: «سؤال ديبلوماسي للغاية! نعم، دايفيد هو الشاب الذي تركتني من أجله، لماذا تسألين؟».

- مجرد فضول.

سألته فجأة: «أتظن أن طلاقك الأول، يجعل احتمالك لمعاناة طلاق آخر، أسهل؟».

- لا بد أنك تمزحين. لقد كان طلاقي من سوزي أحد أسوأ مراحل حياتي.

قالت له برقة: «كنت تحبها كثيراً، أليس كذلك؟».

- نعم. . . في يوم من الأيام.

قالت بلهجة واقعية: «كنت ربما تحت تأثير انفصالك عنها عندما تزوجتني».

قال مقطباً وهو يقف بالسيارة أمام شقتها: «لا أعتقد. لماذا تسألينني عن ذلك الآن؟».

- لا أدري، لقد أطلت السهر، وهذا يجعلني عاطفية حساسة.

وضحكت له، فبدا منظرها متعارضاً مع كلماتها.

- هل تريد الدخول لتناول فنجان قهوة؟

وجدت نفسها تقول ذلك، فبدت عليه الدهشة.

فتابعت: «يمكنني أن أوقع تلك الأوراق لأجلك، وبعدها تذهب».

- هذا حسن.

ثم خرجا معاً من السيارة. وعندما أخرجت المفتاح، أخذت تتساءل

عما جعلها تدعوه إلى الدخول! لقد ارتكبت غلطة، فليس لديها المزاج لتوقيع الأوراق، فقد كانت مضطربة، متمردة وخائفة، ولم تفهم شعورها. كل ما عرفته هو أنها لم تكن تريد أن تبقى وحدها.

***

٤ ـ قالت: نعم

عندما دخل جاي وإليزابيث لفحتهما الحرارة. فقال جاي: «من يدخل إلى بيتك يعلم أنك اعتدت العيش في جمايكا».

ـ لقد شغلت جهاز التدفئة المركزية الليلة الماضية عندما بدأ الثلج يتساقط، ويبدو أنني نسيت إقفاله. هلاّ عدّلته من فضلك؟ إنه على الحائط خارج الحمام.

ذهب جاي ليقوم بذلك. وعندما عاد كانت تسكب لنفسها كوباً من الليموناضة. فسألته: «هل تريد الليموناضة؟».

ـ لا. شكراً.

جلست على الأريكة واضعة قدميها تحتها. وعندما بقي واقفاً قرب الباب ينظر إليها، سألته: «ما الأمر؟».

ـ لا شيء، لكنك قلت إنك متعبة تشعرين بدوار!

ـ لا تخبرني بما عليّ أن أفعل، يا جاي! سأخلد إلى النوم حين أجد ذلك مناسباً!

ـ آه، آسف! كنت فقط أحاول تجنيبك الاستيقاظ مرهقة غداً. يوم الغد يوم حافل بالقلق!

ومدت يدها إلى حقيبتها وهي تفكر كم هي عميقة كلماته تلك! فما إن توقع أوراق الطلاق هذه، حتى تصبح وحدها تماماً. وستنتهي كل ارتباطاتها وعلاقاتها ببيتها في جمايكا. قطبت جبينها، لا، هذا غير صحيح تماماً، إذ ستبقى لها حصتها في حوض أبيها. من الغريب أنها،

حتى الآن، مازالت تشعر بأنه مازال ملك أبيها.

وقالت بابتسامة أكثر إشراقاً من العادة: «حسناً، دعنا ننتهي من هذا العمل البغيض».

وأمسكت بالمغلف السميك وفتحته. فسألها مقطباً: «ألم تقرئي هذه الأوراق بعد؟».

ـ لا!

وأخرجتها من المغلف ووضعتها على منضدة القهوة.

ـ هل لديك قلم؟

ـ آه، يا إليزابيث! الأوراق عندك منذ أسبوعين ولم تقرئيها بعد؟

نظرت إليه متعجبة: «وما الخطب في ذلك؟».

ـ حسناً، لا يمكنك التوقيع على أوراق قانونية قبل أن تقرئيها.

ـ سأقرأها الآن!

وأمسكت بها وأخذت تحدق فيها، لكن الطباعة السوداء بدت غائمة على الصفحات البيضاء.

لم تكن تريد الطلاق. لا . . إنها حقاً لا تريد ذلك، وأخذت تتساءل عما جرى لها. ثم نظرت إليه، وقد سرّتها العتمة في الغرفة فهي لن تحتمل أن يعلم أن الطلاق يكدّرها.

قالت بوجه مشرق: «هلاّ حضّرت لي فنجاناً من قهوة، بينما أراجع أنا هذه الأوراق».

ـ بالتأكيد.

ثم ذهب إلى المطبخ وهو يقول: «لكنني أظن أنه من الأفضل أن تقرئيها في الصباح».

كانت يداها ترتجفان وقد انتابها شعور فظيع. ربما كان على حق بأنها مرهقة للغاية. وإلا ما الذي يجعلها متكدرة إلى هذا الحد؟ إن توقيعها لهذه الأوراق هو الأنسب. فهما لا يحبان بعضهما البعض . . .

وعندما عاد بعد دقائق حاملاً كوبين من القهوة، كانت قد تمالكت

نفسها. وسألها وهو يناولها كوبها: «هل أنت بخير؟».

ـ طبعاً أنا بخير.

رشفت من القهوة السوداء، ثم قالت مكشرة: «قهوتك سيئة جداً».

أجابها ساخراً: «شكراً لك!».

وبدلاً من أن يجلس على الكرسي جانباً، رفع الأوراق عن منضدة القهوة أمامها، وجلس وركبتاه تكادان تمسان ركبتيها.

ـ لا أستطيع شربها.

وحاولت أن تضع الكوب من يدها، فمنعها: «بل اشربيها!».

قال ذلك عابساً، فتمتمت وهي تأخذ جرعة أخرى.

ـ يا لك من متحكّم!

ـ أظنك كنت صعبة المراس في طفولتك، عنيدة ثائرة!

ـ بل كنت ملاكاً.

وناولته فنجانها الفارغ، فقال باسماً وهو يضع الفنجانين جانباً: «مظهر ملاك ولسعة نحلة».

ثم سألها ناظراً إلى وجهها برقّة: «هل تشعرين بتحسن؟».

ـ لقد أخبرتك بأنني على خير ما يرام.

ـ تبدين شاحبة قليلاً.

فقالت باختصار محاولة تجاهل الرقة في صوته وعينيه الجذابتين: «دع عنك هذا الاهتمام يا جاي، لست بحاجة إلى رعايتك!».

فقال بلطف وهو يمدّ يده، يلامس خدها بخفة أرسلت رعشة في جسمها: «سبق أن أوضحت لي هذا».

شعرت إليزابيث بأنفاسها تتوقف. بدا قريباً منها جداً. مال إلى الأمام، فلاحظت الظل القاتم على امتداد فكه، واللون الذهبي في عينيه العسليتين. سألها بهدوء: «أيّ من الرجال في الحفلة هو حبيبك؟».

ـ لقد سألتني هذا من قبل وأعطيتك جوابي. لماذا يهمك هذا؟

ـ لا أدري. ربما أريد أن أعرفه قبل أن أرحل وأرى إن كان يستحقك،

و . . .

فقالت بسرعة: «لا أريد رعاية من أحد».

فابتسم وقال وهو يهز رأسه: «آه، يا إليزابيث! أنا أعرف هذا. لم أعرف من قبل امرأة لها مثل عزيمتك واستقلالك وثقتك بنفسك!».

فقطبت جبينها: «لست واثقة من نفسي إلى هذا الحد... أنت تصوّرني وكأنني صخرة، منعزلة بعيدة».

فقال لها بلطف: «لكنك لا تحتاجين أحداً حقاً، أليس كذلك؟».

نظرت في أعماق عينيه، فشعرت بقلبها يخفق، وأحست فجأة أنها بحاجة إليه، لكنه لا يحبها. فما الفائدة؟ وقالت بسرعة: «لست دوماً واثقة من نفسي. إنني بشر يا جاي وعندي حالات تشعرني بعدم الأمان كأي شخص آخر».

ـ تابعي كلامك إذن!

وازداد اقتراباً منها، وقد أصبح وجهه على بعد إنشات من وجهها.

ـ ما هي هذه الحالات؟

ـ حسناً، أنا قلقة بشأن العمل.

ـ هذا غير مهم!

فقطبت جبينها: «طبعاً هو مهم. إن ضغط العمل كبير.. أشعر بأن عليّ أن أكون دوماً في الذروة، لكن الرجال الذين يعملون حولي يراقبونني على الدوام منتظرين أي سهو مني».

ـ لكن هذا لا يحدث أبداً، أليس كذلك؟

ـ تمرّ عليّ أيام سيئة أحياناً.

هز جاي رأسه: «هذه ليست حالات عدم أمان، إنها فقط حالات ناجمة عن ضغط الحياة اليومية».

فقطبت جبينها: «قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة إليك، لكنه يقلقني. لقد وجدت في شعري هذا الصباح، وأنا أنظر في المرآة، شعرة بيضاء!».

فضحك جاي ونظراته تتنقل عليها بحنان، وقال بصوت أبح:

«إليزابيث. لم تكوني قط بمثل هذا الجمال المتألق الذي أنت عليه في هذه اللحظة!».

ردت بصوت غريب: «لم أكن ألتمس المديح بكلامي ذاك».

فقال وهو يزداد اقتراباً: «أعلم هذا. لكنني كنت أعني ما قلته».

سيعانقها. مرّت ثانيتان لكي تستوعب هذا، وعندما عانقها شعرت بقلبها يذوب.

لقد نسيت أنه قادرٌ أن يثيرها بعناق واحد... نسيت روعة أن تضمها ذراعاه.. وروعة أن تحتضنه هي أيضاً حيث يرتعش قلبها بين جنبيها كالمجنون.

تجاوبت أولاً بشكل مبدئي، وقد أحاطت كتفيه بذراعيها وكأنها خائفة من لمسه. وما إن أخذت تحدث نفسها بالإبتعاد عن كل ذلك، حتى عادت عاصفة من الشوق والحب تكتسحها، محطمة كل الحواجز.

ـ أريدك يا اليزابيث.

كان يهمس بنعومة على بشرة عنقها أما يداه فاخذتا تتخللان شعرها.

ـ أنا بحاجة إليك!

أسرع قلبها بالخفقان حتى شعرت به يكاد ينفجر، وحجبت عقلها المشاعر الهوجاء.

كانت هي أيضاً تريده. وشعرت بالرغبة أشبه بحنين مؤلم للغاية. وطال عناقهما وتضاعف شوقها إليه...

لم تشأ أن تفكر في خطأ هذا العمل وصوابه.

ستستمتع بذلك فقط، وتدع القلق على النتائج إلى الغد.

* * *

كانت ملتصقة به على الأريكة الضيقة. لم يشأ أن يتحرك، لكن ذراعه كانت منحشرة حتى بدأ يشعر بها أشبه بالميتة. سحبها من تحت إليزابيث لكنها لم تتحرك.

ابتسم وعيناه تجولان على جسمها المتكوّر على الوسائد.

بدت ذات جمال سماوي. كان يعشق شعرها الطويل الأسود، ولكنه اعترف الآن بأن شعرها المقصوص يناسب تماماً استدارة وجهها الجميلة.. كانت أهدابها طويلة قاتمة وبشرتها ناصعة ناعمة كالحرير، أما شفتاها فكانتا ورديتين مستديرتين.

فتحت عينيها الزرقاوين فجأة، فلما رأى الضعف فيهما تمنى لو يحتضنها ويحميها...

وقبّل طرف أنفها، فابتسمت ناعسة.

ـ هل نذهب إلى الغرفة الثانية لنشعر بمزيد من الراحة؟

همس في أذنها بهذه الكلمات فابتسمت وهي تحيط كتفيه بذراعيها.

ـ أنا مرتاحة هكذا.

ـ لكنني غير مرتاح.

ثم حملها، فسألته مجفلة: «جاي... ماذا تفعل؟».

ـ أخبرتك بأنني أريد أن أكون مرتاحاً أكثر.

وأزاح الأغطية عن السرير ثم مددها عليه: «جاي... أنا...».

لكنه قاطع ما كانت ستقوله بقبلة... وجرفتها مشاعرها. كل ما كانت ستقوله نسيته. ارتجفت وهي تبادله عناقه وقد تحوّلت نيران مشاعرها المستعرة نحوه إلى حنان بالغ واستسلام عذب.

اندست بين ذراعيه تتعلق به وتشده إليها وكأنه ملاذها الوحيد... لقد نسيت جسده الأسطوري الجمال والقوة، وعضلاته الكبيرة التي تشعرها بالأمان والإطمئنان...

وكانت تشعر بالدوار والسعادة بقربه، بقرب هذا الرجل الذي يكتسح قلبها كما تكتسح الأمواج الشطآن.

نامت بين ذراعيه. وكانت أجمل ليلة تمضيها منذ مدة طويلة... طويلة. وعندما استيقظت، وكان ضوء النهار يغمر الغرفة، أدركت أنها وحدها. كانت الغرفة خالية.

ـ جاي؟

لكنها لم تسمع إلا صدى صوتها، وتساءلت عما إذا كانت تحلم الليلة الماضية بما حدث. استدارت تنظر إلى الساعة فوجدتها السابعة والنصف. إذا لم تترك السرير الآن، فستتأخر عن العمل.

نزلت من السرير، فشعرت بالألم وبالعطش أيضاً. مدت يدها إلى كأس ماء بجانب الساعة ثم جرعته مرة واحدة، متسائلة من أين جاءت هذه الكأس، فهي لم تعدّها لنفسها الليلة الماضية. ثم رأت عليه علبة المجوهرات السوداء فمدت يدها إليها، وفي داخلها رأت حلية التوباز تتألق في شمس الصباح.

أغلقت العلبة، لم يكن ما جرى الليلة الماضية حلماً. رباه، ما الذي فعلته؟ وضعت من يدها العلبة، ثم ارتدت معطفها المنزلي.

ـ جاي...؟

أخذت تناديه وهي تسير في الشقة. كانا يتحدثان معاً كصديقين في الأمس، وإذا بهما ينقلبان إلى شخصين نهمين، وكأنهما يتضوران جوعاً بعد طول صيام.

انتقلت نظراتها إلى أوراق الطلاق التي كانت ما تزال على منضدة القهوة فتأوهت.

جلست على كرسي وقد أخذت خفقات قلبها تتسارع. شعرت لحظة بالخوف، ثم لاح لها قبس أمل. ربما الليلة الماضية كانت نقطة تحوّل، ربما سيعودان إلى بعضهما البعض.

لكنها عادت فقطبت جبينها، لقد بادلته المشاعر المحمومة أثناء زواجهما، ولكن ذلك لم ينجح في جعله مخلصاً لها، أو مهتماً بها. ما الذي اختلف الآن؟ تمتمت بحزن: «إنها غلطة كبرى، يا إليزابيث! غلطة كبرى!».

***

٥ ـ غلطة العمر

ـ أشكركم على الحفلة الجميلة الليلة الماضية!

قالت إليزابيث هذا لزملائها، وهي تدخل المكتب متوجهة إلى مكتبها.

ـ لم أتوقع رؤيتك قبل الظهر. كان من المفروض أن تطيلي السهر ليلة عيد ميلادك وتأخذي اليوم التالي إجازة لا أن تدخلي أبكر من العادة بنصف ساعة.

فابتسمت له: «لم أكن أعلم هذا يا كولين. ربما السنة القادمة!».

قال روبرت: «جون يريد أن يراك. كما وصلتك مخابرتان من... زوجك».

ـ شكراً.

رن جرس تليفونها عدة مرات قبل أن تترك شقتها هذا الصباح، فأدركت أنه جاي، لكنها لم تكن مستعدة للتحدث إليه بعد، وعادت تقول لروبرت: «هل لك أن تسدي لي خدمةً يا روبرت؟ إذا اتصل بي مرة أخرى فأخبره أنني في اجتماع».

فقال ضاحكاً لها: «لا بأس. أما زلت على عهدك في تناول العشاء الأسبوع القادم؟».

ـ نعم؟

ـ متى تريدين تناول العشاء؟ ما رأيك بليلة الثلاثاء؟

ـ عظيم.

فابتسم روبرت وعاد إلى مكتبه.

أدارت إليزابيث جهاز البريد الصوتي على تليفونها، ثم اتجهت إلى غرفة الرئيس. كان جون يتحدث عبر التليفون عندما دخلت، فجلست أمامه منتظرة أن ينتهي، وعيناها تتنقلان بين الصور الموضوعة على مكتبه: صورته وزوجته يوم زفافهما، ثم أخرى لابنتيه.

عندما رجعت إليزابيث إلى مكتبها، وجدت في تليفونها مخابرتين من جاي.

ـ مرحباً، آسف، كان عليّ أن أسرع بالخروج هذا الصباح، لأنه كان عليّ إنجاز بعض الأشغال بنفسي. إلى اللقاء في ما بعد.

قطبت إليزابيث جبينها، هل كان ذلك عذراً؟ ربما هرب خوفاً من أن تأخذ عن الليلة الماضية فكرة أكثر جداً مما ينبغي... أما المخابرة الثانية فكانت: «ما رأيك أن تتناول الغداء معاً؟».

ثم ذكر لها رقم تليفون للاتصال به. فابتسمت... لا، جاي لا يخاف أبداً. ربما سيشكرها لأجل الليلة الماضية، ثم يسألها بشكل عفوي عما إذا وقعت أوراق الطلاق.

دوّنت رقم التليفون ثم تابعت عملها، لم ترد الاتصال به، لأنها لا تعرف ما ستقول، ولم تعرف ما إذا كان هذا لشعورها بالارتباك من الليلة الماضية، أم لشعور أعمق من هذا.

* * *

انتظر جاي ساعتين رداً من إليزابيث على مخابرتيه، محاولاً أن يركز أفكاره في نفس الوقت على أوراق عمل يتعلق بحوض المراكب. لكنه، لم ينجح في ذلك. ما كان عليه أن يتعجل بالخروج هذا الصباح، لكنه كان ينتظر اتصالاً تليفونيا من ليزا الساعة التاسعة، ليستلم هذه الأوراق بالفاكس. كانت إليزابيث نائمة بسلام وهدوء، فلم يقوَ على إزعاجها. قطب جبينه وتناول مفاتيح سيارته وقرر الذهاب للحديث معها. فهو لا يستطيع أن ينتظر حتى وقت الغداء.

تنهد وأعاد الأوراق إلى حقيبة أوراقه! لم يستطع التركيز عليها، لم يقصد أن يظهر مشاعره بهذه القوة لإليزابيث الليلة الماضية. صحيح أنه كان يرغب فيها، لكنه يشعر بأنه استغل ضعفها وإرهاقها الليلة الماضية.

أوقف السيارة في الموقف القريب من مكتبها، ثم سار نحوه. كان النهار صاحياً مشرقاً وبارداً. وكان يشعر بالنشاط والسرور. . . ربما لفكرة أنهما، هو وإليزابيث، سيضعان حداً لنزاعهما.

وصل جاي إلى مكتب إليزابيث، فرآها تخرج من المدخل الأمامي. بدا وكأن الحظ يساعده. لا بد أنها ذاهبة إلى الغداء، فابتسم وأسرع لكي يدركها. ولكن عندما استدارت لتدخل المطعم، لاحظ أنها لم تكن وحدها. كانت مع رجل، ولم يكن واثقاً من أنها خرجت معه أو قابلته عند مدخل المطعم.

استدار الرجل ليغلق الباب خلفه، فرأى جاي أنه رئيسها جون. وكانت إليزابيث تبتسم له، ويدها على ذراعه وفي عينيها نظرة دافئة.

هل ثمة شيء بينهما؟ ووقف جاي يفكر. لقد قالت له إنها تخرج مع شخص، وإن الأمر جاد بينهما. ولكن، بعد الحفلة، نبذ جاي هذا من ذهنه، بعد أن رأى أن الأمر ليس جاداً فهو لم يرها أثناء الحفل مع شخص بالذات. أما الآن فلم يعد واثقاً إلى هذا الحد.

كان جون هو الوحيد الذي لم ترقص معه الليلة الماضية، فهو يكبرها بخمسة عشر عاماً على الأقل. وعندما غادر الحفلة، ألم يقل إنه سيذهب إلى البيت لأجل زوجته؟

عندما كان يتساءل عمن يكون صديق إليزابيث الغامض، لم يشك في جون. ولكن ربما إليزابيث وجون كانا أدهى من ذلك، فعندما تقوم علاقة بين الرئيس المتزوج وموظفة عنده، لا تظهر هذه الأخيرة ذلك أمام الناس، خصوصاً زملاء العمل.

مضت لحظة عنيفة فكر فيها أن يدخل المطعم ويواجههما. ولكنه عاد وغيّر رأيه، فليس له الحق في ذلك. سيبدو زوجاً غيوراً، وابتسم لنفسه

بتجهم، ثم توجه نحو موقف السيارات.

* * *

عندما عادت إليزابيث إلى بيتها، وجدت في جهاز الإجابة في تليفونها اتصالين تليفونيين. . كان الإثنان من لوسي التي أرادت أن تعرف إن كانت تودّ أن تخرج معها الليلة. فردت عليها فوراً وهي تتناول أوراق الطلاق تنظر فيها: «لا أستطيع يا لوسي، لديّ أوراق عمل عليّ أن أنهيها الليلة».

ـ لا بأس. بالمناسبة، كيف انتهى الأمر بكما أنت وزوجك؟

ـ أظنني اقترفت غلطة شنيعة. . .

وسكتت إليزابيث بعد أن وقعت عيناها على أوراق الطلاق، لم تستطع أن تفهم ما كانت تقرأه، فقالت بسرعة: «سأعاود الاتصال بك يا لوسي!».

ـ لا يمكنك أن تتركيني معلقة هكذا، أيّ غلطة شنيعة؟

ـ غلطة الدهر!

وعندما عادت تقرأ الأوراق رن جرس الباب، فقالت: «انتظري لحظة يا لوسي. . .».

ووضعت التليفون من يدها ثم أسرعت تفتح الباب.

كان جاي واقفاً عند العتبة، وعندما تقابلت أعينهما تسارعت خفقات قلبها، واكتسحتها موجة من الحرارة وهي تتذكر الليلة الماضية.

ـ أيمكنني الدخول؟

ـ نعم. . . طبعاً.

وتراجعت إلى الخلف بسرعة وقد لاحظت أنها تركته ينتظر: «أتحدث في التليفون ولن أتأخر».

عادت ترفع السماعة، وهي تراه يراقبها من آخر الغرفة. تمنت لو أنها ارتدت هذا الصباح ثوباً أكثر أناقة، بدلاً من هذا البنطلون الرمادي والبلوزة الوردية.

ـ آسفة، سأتصل بك في ما بعد.

سألتها لوسي: «هل هو زوجك؟».

- نعم، سأتحدث إليك في ما بعد.

- حسناً، لا أظنك اقترفت غلطة كبيرة. يبدو أنه مجنون بك.

ونظرت إليزابيث إلى جاي، فقابل نظراتها ببرودة فتمتمت: «لا أظن ذلك».

فضحكت لوسي: «تدللي لكي تنالي. حسناً. سأتحدث إليك لاحقاً».

بدا الصمت في الغرفة عميقاً بعدما وضعت السماعة.

- لم تردّي على اتصالاتي.

- آسفة، كنت مشغولة طوال النهار!

- لا وقت للغداء؟

هزّت رأسها: «كان عليّ أن أشتغل خلال الغداء».

- إنهم يكلفونك فوق طاقتك في العمل، أليس كذلك؟

تساءلت عما إذا كان يسخر منها وقطبت جبينها: «حسناً، أظن هذا صحيحاً. الآن فقط استطعت أن أنظر في هذه الأوراق. أنا...».

فقاطعها: «ربما علينا أن نتحدث عن الليلة الماضية، يا إليزابيث، قبل أن نتحدث عن هذه الأوراق؟».

وخلع سترته الجلدية وعلّقها على كرسي. كان يرتدي بنطلوناً كاكياً وكنزة كحلية. وبدا بالغ الوسامة.. كان وسيماً بحيث أرادت أن تنسى كل شيء وتعترف له أن الليلة الماضية كانت رائعة، ربما عليها أن تقول ذلك... أن تنسى كرامتها وترى ما سيحدث.

لكنها بدلاً من ذلك سألته: «لماذا استعجلت بالخروج هذا الصباح؟».

- آسف لذلك، لكن ليزا قالت لي إنها ستنقل بالفاكس بعض الأوراق الهامة و...

- ليزا؟

وحدقت إليه وقلبها يخفق بعنف، فقال بهدوء: «أتتذكرين ليزا،

سكرتيرتي؟».

- نعم، أتذكرها جيداً.

كانت لهجتها باردة. كانت ستنسى ليزا منذ لحظات عندما رغبت في الارتماء بين ذراعيه. ولكن الآن... مجرد ذكر اسمها جعل الذكريات تحطمها.

- كان الأمر هاماً وإلا لما استعجلت بذلك الشكل.

- هذا غير مهم يا جاي، صدقني، فأنت غير مدين لي بشيء... والآن هل أوقع إذن هذه الأوراق وننتهي من الأمر؟

- إذا شئت!

قطبت جبينها. كانت تريد أن يقول لها إن ليلة أمس كانت غير عادية، وإنها عنت له الكثير. ولكن ذلك لم يتحقق... تناولت قلماً ثم حاولت أن توازن الأوراق على ركبتها.

سألها فجأة: «هل تتعاطين الحبوب بانتظام؟».

- الحبوب؟

- لم نأخذ احتياطات منع الحمل الليلة الماضية.

- لم أنسَ.

كانت يداها ترتجفان فاضطرت لترك القلم. لم تشأ أن يراها غير مسيطرة على الوضع.

- لكنني لا أظن أن هذا من شأنك!

- لا تكوني سخيفة بل هو من شأني!

- لم تسألني عن حبوب منع الحمل الليلة الماضية، فلماذا تسأل اليوم؟

- حسناً، الليلة الماضية خرجت الأمور عن السيطرة يا إليزابيث. أنا لست فخوراً بانجرافي عاطفياً الليلة الماضية لكنني أريد منك أن تعلمي أن أمرك يهمني. وإذا حدث شيء نتيجة لما حصل، فسأتحمل المسؤولية...

قالت ساخرة: «حسناً... شكراً. لكنني لا أريدك أن تقلق».

- أنت إذن تتعاطين الحبوب؟

كان يريد جواباً مباشراً صريحاً وهذا ما جعلها تنكمش، ثم نظرت إليه بغضب: «لا. أنا لا أتعاطى حبوب منع الحمل لأنني أعيش وحدي، يا جاي، وقبل الليلة الماضية لم تكن لي حاجة قط لاستعمال موانع الحمل على مدار الساعة. والآن، هلاّ غيّرنا الموضوع؟».

مضت لحظة ظنته سيستمر في استجوابها لكنه لم يفعل. نظرت إلى الأوراق على ركبتيها: «ما كل هذه الأشياء عن أسعار الأسهم في حوض بناء المراكب؟».

لم تصدق أنها تمكنت من إلقاء هذا السؤال بكل ذلك الهدوء. فقال بنفس الهدوء: «إنه سعر السوق حالياً. إذا قلبت الصفحة، ترين مشاريعي للسنة القادمة وسترين أنني أقدم سعراً عادلاً».

- سعراً عادلاً؟

ونظرت إليه بحيرة.

- لحصتك في حوض بناء المراكب.

- وما دخل هذا بطلاقنا؟

لقد اختلط عليها الأمر الآن تماماً.

- نحن بحاجة إلى تنظيم العمل بيننا قبل أن نفكر في الطلاق.

كانت لهجته من الواقعية بحيث جعلتها تنظر إليه بحدة: «أتعني أن هذه ليست أوراق الطلاق؟».

- لا، هل هذا ما كنت تتوقعينه؟

- نعم.

- تبدو عليك خيبة الأمل.

شعرت بقلبها يخفق بعنف. لم تكن خيبة الأمل ما تشعر به، بل شعور عارم بالراحة وكأنها أعفيت من عقوبة الإعدام.

وعندما استوعبت كلماته ببطء، خفّ شعور التفاؤل في نفسها. قد لا يريد الطلاق حالياً، ولكن هذه الأوراق هي الخطوات الأولى لذلك!

قالت بصدق وفي صوتها يبدو الضعف: «لا أدري ما هو شعوري!».

- إنها المرة الأولى التي تعترفين بأنك غير متأكدة.

فقالت بخشونة: «هل تسخر مني؟».

- لا، أنا لا أسخر منك! عليك أن تعترفي، يا إليزابيث بأنك، عادة، متأكدة وواثقة تماماً من كل شيء!

أرادت أن تصرخ به، أن تقول، ألا ترى أن هذا مجرد تمثيل؟ أنا لست كذلك في الحقيقة! لكنها لم تقل شيئاً من هذا. لا يمكنها الاعتراف له بأنها ليست هادئة وواثقة ودائمة السيطرة على نفسها. فإذا علم بهذا فقد يدرك كم هي ضعيفة!

تقدم منها وجلس أمامها على ذراع الأريكة. ثم قال فجأة: «ما كان لك أن تتركي جمايكا قط. كان خطأ كبيراً أن تضعي بيننا كل هذه المسافة».

- بدت لي حينذاك فكرة جيدة.

تمتمت بذلك وهي تتذكر شعورها عندما اكتشفت جاي مع ليزا.

- لقد جعل ذلك تنظيم الأمور بيننا أمراً مستحيلاً!

- الأمور مثل حوض بناء المراكب؟

فهز رأسه نفياً: «حسناً، في الواقع كنت أفكر في الناحية الشخصية، ولكن نعم، حوض بناء المراكب أيضاً».

فتمتمت تقول: «والآن، تريد فجأة أن تشتري حصتي فيه».

لماذا؟ ليعطيه لليزا؟ كانت الفكرة مريعة.

فقالت بحزم: «لا أريد أن أبيع حصتي».

تساءل عما إذا أساء قراءة التعبير الذي بدا على وجهها منذ لحظات. لم تعد في صوتها الآن أي نبرة ضعف، فقد بدت جازمة عملية، وشعر هو بالغيظ لعدم تمكنه من حملها على ذلك واستخلاص أجوبة صريحة منها.

- لمَ لا؟

- لأنني لست مستعدة للتخلي عنها.

لوى شفتيه ساخراً: «دعينا نفكر بتعقل يا إليزابيث. أنت تعيشين بعيداً بحيث لا يمكنك المشاركة في سير العمل. ويداي غير طليقتين لأن شريكتي في العمل بعيدة. فكل ما أريد أن أقوم به يحتاج إلى توقيعك، وهذا عائق جهنمي».

قالت بصوت أجش: «شكراً!».

قال بلطف: «أنا لا أحاول أن أكون فظاً، ولكن عليك مسؤولية بالنسبة إلى العمل. لقد وظفت كثيراً من الأرباح في توسيع العمل. ولكي أقوم بالمزيد، يلزمني قرض من البنك. وقد قبلوا بذلك ولكن ما يعيقهم هو غيابك، فأشاروا عليّ بشراء حصتك».

- ولماذا يعيقهم غيابي؟

- أنت تعرفين البنوك. يريدون كل شيء دون أي مجازفة وهم يرونك غير ثابتة أو مرتبطة.

- هذا حسن جداً. ألم تخبرهم أن حوض بناء المراكب هو حبي الكبير لأنه كان ملكاً لأبي؟

- لا أظنهم عاطفيين إلى هذا الحد، يا إليزابيث.

قال ذلك هازلاً لأول مرة هذا المساء، فتركت الأوراق وكأنها جمر.

- حسناً، لن أبيع! عد إليهم وأخبرهم أن الجواب هو «لا».

- بحق السماء يا إليزابيث! لقد عرضت عليك ثمناً جيداً.

- لا يهمني، فلن أبيع!

ونهضت من مكانها، ثم سارت نحو النافذة وأخذت تحدّق إلى شوارع لندن المعتمة، ثم تابعت تقول: «لا تقلق، سأوافقك على كل ما تقوم به بالنسبة إلى الحوض! لن أعيقك عن ذلك، أرسل لي الأوراق فقط وأنا أوقعها».

- لقد استغرق منك النظر فقط إلى الأوراق أسبوعين. فكيف أثق أنك ستوقعين أوراقاً أخرى؟

- لأنني أخبرتك بأنني سأفعل.

- سبق أن وأخبرتني بأنك ستوقعين هذه!

- حسناً، لم أكن أعرف حقيقتها.

تقدم يقف خلفها: «عندما تكلمنا تليفونياً أخبرتني بأنك قرأتها».

- لا. لم أفعل.

سألها بصوت أكثر عقلانية وهدوءاً: «لماذا لا تريدين البيع؟».

- أخبرتك بأنني لست مستعدة نفسياً لذلك.

- أسبابك إذن عاطفية فقط؟

فاستدارت تنظر إليه: «ليس من الخطأ أن أكون عاطفية، يا جاي».

كان قريباً منها أكثر مما كانت تظن، فرأت نفسها تنظر في عينيه.

وافقها على ذلك: «لا. هذا ليس خطأ!».

جعلتها رقة صوته تشعر بدفء في داخلها. وشوق إلى أن تحيطه بذراعيها، وتريح رأسها على صدره.

وتراجعت خطوة ثم قالت: «كان ذلك الحوض عزيزاً على أبي، لذا لا أستطيع التخلص منه لنزوة طارئة، عليّ أن أفكر كثيراً في الأمر».

- نعم، أفهمك!

قال هذا ببطء، لكنه أخذ يتساءل عما إذا كان هناك سبب آخر لهذا. هل كانت عواطفها كلها نحو أبيها؟ وخطر في باله فجأة أنه إذا تمكن من إعادتها إلى جمايكا، فقد يعرف السبب، فهي هُنا مشغولة دوماً بعملها وهو يشك بأن تكون على علاقة بجون، وإن تمكن من الانفراد بها، فقد يتمكن من حل الأمر بينهما.

ابتسم ابتسامة تنقصها البهجة: «ماذا يفترض بي أن أفعل أثناء ذلك؟ أأدع العمل يضيع هكذا؟».

- لا. سبق أن أخبرتك بأنني سأوقع كل ما تريد أن. . .

- هذا لا يكفي. لديّ ثلاثة اجتماعات في البنك الأسبوع القادم. والأمور تتطلب السرعة!

وعندما لم تجب عن هذا، تابع يقول بلطف: «مضى على وفاة أبيك

أكثر من عام ونصف. ربما حان الوقت لكي تبيعي حصتك».

فقالت بصوت يقرب من الهمس: «سبق أن أخبرتك أنني غير مستعدة لذلك».

ـ عليك إذن أن تعودي معي.

فنظرت إليه متعجبة، فيما تابع يقول: «لن يأخذ ذلك من وقتك أكثر من أسابيع. يمكنك حضور الاجتماع معي، وطمأنة مدير البنك إلى اهتمامك ومساندتك كشريكة في الأمر».

ـ لا يمكنني العودة إلى جمايكا، فلديّ عملي هنا.

وتساءلت عما إذا كان يبدو عليها نفس الذعر الذي تشعر به. كان التفكير في العودة إلى جمايكا يملؤها رعباً. فهي تذكرها بالكثير من الذكريات المرة التي تريد أن تنساها... وفاة أبيها وفشل زواجها...

ـ عليك أن تختاري الأكثر أهمية بالنسبة إليك: عملك هنا أو مصالحك العملية في الوطن.

وعندما لم تجب، تابع: «اطلبي إجازة من عملك... قولي لهم إنك مريضة... أخبريهم أن زوجة أبيك ستتزوج مرة أخرى، وأنك مدعوة إلى العرس. اختلقي أي عذر، واذهبي لمدة اسبوعين على الأقل تنهين فيها أمورك بالنسبة إلى أملاكك».

لكنها بقيت صامتة، فقال بهدوء: «أريد عونك، يا إليزابيث، لقد أنجدتك حين فقدت الأمل في الحصول على حوض المراكب. والآن، حان وقتك للقيام بشيء لأجلي».

فقطبت جبينها: «هذا ليس عدلاً. لقد حاولت أن أساعدك بالنسبة إلى العمل من قبل، يا جاي... عندما تزوجنا، عرضت أن أتخلى عن عملي في شركة «الإعلان عن المجوهرات» ثم أعمل معك في المكتب بدوام كامل. لكنك رفضت قائلاً إنك لست بحاجة إليّ».

ـ حسناً، أنا بحاجة إليك الآن.

فدار رأسها.. منذ سنة، كانت مستعدة للتخلي عن أي شيء في سبيل

سماع هذه الكلمات منه.

ـ إما هذا وإما أن تبيعيني!

أعادتها هذه الكلمات إلى الواقع بحدة. بدا كلّ ما بينهما مجرد عمل. وما كان لها أن تتخيل من كلامه هذا أمراً آخر، فقالت ببرودة: «سأفكر في الأمر. سأسأل جون!».

رأت الغيظ يعلو وجهه، فقالت: «لا يمكنني أن أتركه هكذا دون أن أخبره».

ـ ولمَ لا؟ لقد سبق أن تركتني بهذا الشكل.

ـ كان ذلك أمراً مختلفاً!

ـ أحقاً؟ كما تشائين! لكن صبري سينفد، يا إليزابيث!

ـ هل هذا تهديد؟

ـ لا، بل مجرد وصف لحالتي! لا أستطيع العمل بهذا الشكل يا إليزابيث. أنت تدفعينني إلى الجنون.

تمنت إليزابيث لو أن لديها الشجاعة لتقول له مازحة (ولِمَ لم تتذمر الليلة الماضية؟). لكنها لم تستطع أن تجعل ما قاما به الليلة الماضية عرضة للمزح... بل لا تستطيع التفكير فيه دون أن يتملكها الشوق.

ـ لدينا أعمالٌ غير مكتملة. تعالي معي وحلّي المشكلة وإلا سأضطر للجوء إلى محام!

رفعت حاجبيها إزاء هذه الكلمات الصريحة الجادة، فقال متوتراً: «لا أريد القيام بذلك، لكنني سأفعل إذا اضطررت».

ثم استدار يتناول سترته.

ـ اتصلي بي في الفندق غداً. أنا راحل صباح الأحد باكراً، لذا لا تتأخري في الاتصال بي.

تردد صدى هذه الكلمات في أذنيها طويلاً بعد أن أغلق الباب خلفه.

* * *

٦ ـ عودي . . .

صباح السبت، عاد التوجس يتملك إليزابيث. فاتصلت بصديقتها لوسي لكي تستشيرها في الوضع.

ـ لو أخبرني أحدهم بأنه عليّ الذهاب إلى جمايكا، لانطلقت كالرصاصة. هل طلبت إجازة من العمل؟

ـ نعم، لقد بحثت الأمر مع جون أمس. قلت له إنني تلقيت دعوة مفاجئة لعرس في جمايكا، وهذا صحيح على كل حال، لأن زوجة أبي ستتزوج مرة أخرى.

ـ وماذا قال جون؟

ـ من الغريب أنه رحّب بذلك، قائلاً إن لي إجازات متراكمة، وإن كولين سيملأ الفراغ الذي سأتركه.

فقالت لوسي ضاحكة: «أراهن على أن هذا سرّك».

أجابت إليزابيث متجهمة: «سرّ كولين أكثر، لا أستطيع منع نفسي من الشعور بأن عودتي إلى جمايكا هي غلطة شنيعة».

ـ إذا كانت لأسبوعين فقط، فلا ضرر من ذلك. دعينا نذهب معاً للتسوّق عند العصر، فتشترين ثوباً تحضرين به العرس وتفتنين به جاي.

كانت العودة فكرة حسنة في الواقع. لكنها ترددت عندما اتصلت بجاي فقال لها: «سأحجز لك على الطائرة معي غداً صباحاً».

أزعجتها فكرة إمضاء عشر ساعات معه في طائرة.

فبادرته بالقول: «لا، لا تفعل ذلك. لا يمكنني السفر في الحال. في

العمل التزامات عليّ أن أنجزها قبل ذلك!».

ـ لا بأس. متى تريدين القدوم؟

ـ بعد أسبوعين. عند ذاك يمكنني حضور عرس «شيريل».

ـ كنت آمل أن تأتي قبل ذلك، لأن لديّ اجتماعاً مع البنك.

ـ حسناً، ألا يمكنك الاتصال بهم لتعديل الموعد؟

ـ أظن ذلك ممكناً. اتصلي بي عندما تحجزين للسفر، وأخبريني بموعد وصولك. وهكذا يمكنني استقبالك في المطار.

فقالت بتردد:

ـ لا بأس. سأتصل بك.

أتراه يتوقع منها أن تمكث في بيته؟ لا، لا بكل تأكيد. إن الفندق هو خيارها المفضل. ستحجز بنفسها في الفندق، ومن ثم تتصل به من هناك. ستذهب إلى هناك حسب شروطها هي.

* * *

بعد ذلك بأسبوعين، بدا وكأن تلك الثقة التي كانت تشعر بها، وهي تأخذ ذلك القرار في لندن، فارقتها.

وقفت في شرفتها، وأخذت تتنشق شذا الأزهار الاستوائية من الحديقة. كانت شمس الظهيرة حارقة. ولم يكن هناك شيء يتحرك عدا البحر الكاريبي الذي كانت أمواجه تتلاطم على الشاطىء.

انتقلت عيناها إلى الممر الممتد في الفندق. إنها تراقب ذلك الممر منذ ساعة فهي واثقة من أنه سيأتي حالاً.

تحت ظل شجرة، كانت هرة سوداء نائمة. فتمنّت إليزابيث لو أنه بإمكانها أن تنام مسترخية مثلها تحت شجرة، متظاهرة بأنها في إجازة.

رفعت الهرة رأسها قد بدا الانزعاج في عينيها الذهبيتين فذكرها لون عينيها بالحلية التوباز التي أهداها إيّاها جاي يوم عيد ميلادها، وهذا جعل أفكارها تتحول إلى ليلتهما المحمومة تلك.

مضت على تلك الليلة ثلاثة أسابيع تقريباً، وها هي الآن في الطريق

المؤدي إلى ما كان يوماً ما بيتها، فما أغرب الحياة!

نظرت إلى الساعة في يدها، ثم عادت تجلس على الكرسي الخيزراني هاربة من حرارة الشمس. لقد تأخر جاي... لا تريد أن تبدو وكأنها كانت تنتظره أو تهتم لذلك وعندما يتكرّم بالمجيء فستتظاهر بعدم الاكتراث. ستنظر إليه وتقول ببرودة: (آه، أهذا أنت؟) وكأنه ليس زوجها.

تناولت الكتاب الذي كانت تحاول قراءته على الطائرة أمس. عشر ساعات من لندن إلى هنا وما زالت في الصفحة الثانية منه.

عندما اتصلت الليلة الماضية من الفندق بجاي، بدا في صوته الغيظ: «أما قلت إنك ستتصلين بي عندما تحجزين رحلتك؟ أوَ لم أقل إنني سأستقبلك في المطار؟».

ـ هذا ما قلته أنت، لكنني هنا الآن!

أجابته بذلك بهدوء. فهي لم تنو الاعتماد عليه.

ـ لا بد أنه كتاب جيد...

فاجأها صوت جاي من جانبها.

ـ هل هو السبب الذي منعك من أن ترفعي السماعة لتتصلي بي كي أستقبلك في المطار؟

وقع الكتاب من يدها إلى الأرض محدثاً صوتاً حاداً. كان متكئاً إلى درابزين الشرفة، وبدا مرتاحاً ووسيماً جداً.

ـ مرحباً يا جاي.

نسيت خطتها في أن تكون باردة انطوائية. كل ما استطاعت التفكير فيه هو أنها افتقدته في الأسبوعين الماضيين. عندما غادر لندن، ظنت أنها ستتنفس الصعداء، لكن هذا لم يحدث.

شيء في نظراته إليها الآن جعل قلبها يتوقف عن الخفقان، وفجأة، تشوقت إلى أن يخبرها أنه قد افتقدها. لكن هذا كان جنوناً. فقد مضى على انفصالهما أكثر من عام، فلماذا يفتقدها الآن فجأة؟

كل ما يحتاجه منها الآن هو وجودها في اجتماعات العمل وتوقيعها

على الأوراق، لا أكثر.

ـ لماذا لم تتصلي بي؟

سألها وهو يتقدم ليقف أمامها، ثم جلس على كرسي، فنظرت إليه. كان يرتدي بنطلوناً لونه «بيج» وقميصاً مفتوح الصدر. كانت ملابسه تلائمه إذ بدا جذاباً.

ـ لم تكن لدي فرصة إذ كنت مشغولة جداً. فقد أخذت إعادة برمجة العمل وتنظيمه الكثير من وقتي.

فسألها بجفاء: «كانوا يشغلونك ليل نهار، أليس كذلك؟».

فأجابت غاضبة: «كنت مشغولة...».

لماذا يجعلها دوماً بحالة الدفاع عن النفس؟ إنها مستعدة لدفع أي شيء في هذه اللحظة لكي يتقدم ويقبلها على خدها على الأقل، ويخبرها بأنه مسرور لرؤيتها. لكنهما يتبادلان الآن الكلام الحاد القاسي.

جالت عيناه على الثوب الأزرق الذي كانت ترتديه. كانت تبدو رائعة الجمال وهادئة فضايقه هذا!

ونظر إلى ساعته، فقال: «على كل حال، سنناقش ما كنت تهدفين إليه، في وقت لاحق. أما الآن، فمن الأفضل أن تجمعي أمتعتك لنذهب».

سألته بحذر وقد فوجئت بطلبه هذا: «نذهب إلى أين؟».

ـ إلى البيت طبعاً. إلى أين تظنين؟

قطبت جبينها: «البيت؟».

ـ حسناً، لا أظنك كنت تفكرين في المكوث هنا، أليس كذلك؟

وبدت عليه الحيرة لمجرد هذه الفكرة.

ـ طبعاً سأمكث هنا، ولهذا حجزت الغرفة لأسبوعين!

ـ هل أنت خائفة مني؟

فنظرت إليه دهشة: «لست خائفة طبعاً. يا له من سؤال سخيف!».

ـ لماذا إذن تريدين الإقامة في الفندق بينما لدي بيت فيه أربع غرف

نوم؟

لم تستطع أن تجد جواباً مناسباً لسؤاله المنطقي.

ـ لأن... لأننا منفصلان و...

ـ وماذا عن حبيبك؟ ألا يوافق؟ هل هو غيور؟

ـ حبيبي؟

مضت لحظة لم تفهم خلالها معنى كلامه ثم تذكرت كذبتها البيضاء الصغيرة.

ـ آه! لا، طبعاً هو لايغار لأنه يثق بي تماماً.

وعندما تقابلت أعينهما، شعرت بأن عليها تأكيد كذبتها رغم أنها لم تكن تعرف السبب.

ـ إنه يعلم أن كل شيء بيننا قد انتهى.

ـ أحقاً؟

ومال جاي فجأة إلى الأمام: «وهل أخبرته عن ليلتنا ذات المشاعر المحمومة تلك؟».

شعرت بحرارتها ترتفع لدى هذا السؤال، وبوجهها يتورد.

ـ ملاحظتك هذه تطمئنني إلى أنني اتخذت القرار الصواب في الإقامة هنا.

أجابت بذلك متمنية لو أنها لم تظهر بهذا الشكل المتزمت.

لكن جاي انبرى ضاحكاً: «هل أنت خائفة من أن أغريك بتكرار ما حدث؟ لا... انتظري لحظة... آسف. نسيت أنك قُلت إنك لن تنجرفي ولو كنت آخر رجل في العالم».

حاولت جاهدة أن تخفي الحمرة التي علت وجهها حين تذكرت قولها هذا.

ـ هذا ما جعلني أحجز غرفة في هذا الفندق.

فابتسم: «جميل أن أعلم أنني ما زلت أستطيع التأثير فيك».

قال ذلك برقة وقد زايل التهكم صوته وبدت الرقة في عينيه.

ـ ما كان عليّ أن أغيظك... آسف.

ـ نعم، ما كان عليك أن تفعل ذلك.

وتملكها الإضطراب، فهي تكره أن تراه لطيفاً رقيقاً نحوها. ولكنها، على الأقل، لا تشعر بجانبه بالسأم أبداً.

قال بسرعة: «ما دمنا نتبادل الأعذار، لديّ عذر آخر أقدمه».

فنظرت إليه بارتياب. فقال: «لقد دفعت حسابك في مكتب الاستقبال».

نظرت إليه دهشة: «ماذا؟ كيف تجرؤ على هذا دون استشارتي؟».

ـ لم يخطر في بالي أنك لن تقبلي بالإقامة في بيتي، لذا فعلت ذلك من باب الضيافة.

ـ بل فعلت ذلك من باب الغطرسة والتسلّط. حسناً، سأخبرهم أنني ما زلت أريد الغرفة.

ـ لكنهم حجزوها الآن لشخص آخر. لقد وصل للتو وفد يريد عقد مؤتمر في جمايكا، وأظنهم سرّوا جداً عندما أخبرتهم أنك ستتركين الفندق.

ـ آه، بحق الله عليك!

قال ضاحكاً: «لا تنظري إلي بهذا الشكل. لم أفعل هذا عن عمد. اسمعي! اجمعي أمتعتك وتعالي معي. إذا شعرت بأنك غير سعيدة، فسأبحث لك عن فندق آخر. ما رأيك؟».

لم تجب. فقد جعلت فكرة الذهاب إلى بيتهما خفقات قلبها تتسارع وشعرت وكأنها مجبرة على القيام بشيء خارج عن سيطرتها.

ـ ما رأيك إذن؟ لا أريد استعجالك، ولكن لدي عملاً بعد الظهر في الحوض.

لم تستطع يوماً أن تهزم جاي؟ وفي كل مرة كانت تحاول ذلك كان الأمر ينتهي بها إلى كارثة. قالت وهي تنهض واقفة: «لن أقيم في البيت، على الأقل لمدة طويلة».

- مهما يكن، تعالي الآن. أحضري أمتعتك لأنني لا أملك الوقت الكافي للمناقشة.

وقف صامتاً عند العتبة ينظر إليها وهي تفتح حقيبة ملابسها وتضع فيها أشياءها. تمنت لو يقف في الخارج فقد شعرت بالحاجة إلى التفكير في هذا الوضع. فجأة، رن تليفون خليوي، فأجفلت.

- جاي هاموند يتكلم.

أجاب على التليفون بصوت عملي موجز. ولكنْ بعد أن أدرك من المتكلم، ضحك وبدت الراحة في صوته. وانتقلت عيناه إلى إليزابيث وهي تجاهد لتشد الأحزمة حول حقيبتها: (لا. أظن أن ذلك سيستغرق بعض الوقت، لكنني لا استطيع الحديث الآن. نعم. سنفعل ذلك. أراك في ما بعد، باي، كارولين).

من تكون كارولين هذه؟ وحكمت إليزابيث من لهجته بأنها امرأة مقرّبة منه، فما هي علاقتها بأموره؟ وماذا عن ليزا؟ وعندما همّت بإنزال الحقيبة عن السرير، تقدم نحوها قائلاً: «هل وضعت فيها كل شيء؟».

- نعم، فأنا لم أفرغ كل شيء الليلة الماضية.

وتركت له الحقيبة عندما مدّ يده يأخذها منها، لأنها لم تجرؤ على الاحتكاك به بأي شكل.

تبعته إلى الخارج تحت الشمس الحارقة. لم تستطع أن تصدق أنه أخرجها من هنا بعد كل ما خططته بعناية بالغة! توجهت إلى السيارة غاضبة فهو لم يهتم مثقال ذرة بأي اتفاق، ولم يهتم برأيها فيه. إنه يتصرف كما يريد، كالعادة.

وضع حقيبتها في صندوق سيارة جيب حربية قديمة، ثم فتح لها الباب لتصعد. ورغم أنه أوقف السيارة في ظل شجرة، إلا أن الحرارة في داخلها كانت حارقة.

وعندما بدأت السيارة بالتحرك، قالت: «نسيت مبلغ حرارة الجو في جمايكا!».

وشعرت فجأة بالغثيان ولم تعرف إن كان السبب الحرارة أم التوتر الذي شعرت به لفكرة العودة إلى بيتها.

- سيحسن المكيف الهواء.

كان صوته حنوناً جداً فتساءلت عما إذا كانت تشعر بالغثيان بسبب المرض.

- ارفعي زجاج نافذتك لكي أدير جهاز التبريد.

أخذت تحدق إلى المناظر خارج السيارة، لكنها كانت أكثر إحساساً بوجود جاي بجانبها من أي شيء آخر. رأت يده على المقود، قوية قادرة. وتذكرتها وهي تبعث في نفسها المشاعر المحمومة.

جعلتها هذه الذكرى تغضب. لم تشأ أن تفكر في أشياء كهذه، فقد انتهى ذلك الفصل من حياتها. ومع ذلك، ها هي الآن تعود إلى بيته. البيت الذي عاشا فيه زوجاً وزوجة.

تساءلت عما إذا كان تغيّر كثيراً عما كان عليه. عندما دخلته بصفتها زوجة، أدخلت عليه بعض التغييرات، فنقلته من مسكن لأعزب، إلى عش زوجي. أغمضت عينيها وأخذت تفكر في البيت متنقلة في خيالها من غرفة إلى غرفة، كما فعلت دوماً في لندن عندما كانت تشعر بالشوق إليه.

قطع عليها أفكارها قائلاً: «هل تشعرين بتحسن؟».

- نعم، شكراً.

- تبدين شاحبة قليلاً، عليك أن تستلقي في الشمس لفترة، لتكتسبي بعض اللون.

- لست هنا في إجازة، يا جاي. بل في عمل!

- لكن لا شيء هناك يمنع من الاسترخاء فترة. كل ما أريده منك هو حضور بعض الاجتماعات مع البنك.

- نعم، لكنني أريد أن أذهب إلى الحوض، وألقي نظرة على دفاتر الحسابات لأرى كيف تسير الأمور.

فقال باسترخاء وعدم اهتمام: «طبعاً. يسعدني أن آخذك إلى

الحوض، ولكن ليس اليوم. يجب أن تستريحي بعد تلك الرحلة الطويلة. خذي كتابك إلى الحديقة».

فأجابته بحزم: «لا أريد أن أرتاح».

ـ كما تشائين.

وساد الصمت بينهما، فأخذت تنظر إلى الحقول الخضراء والجبال الزرقاء البعيدة... إجتازا المنعطف الذي يؤدي إلى بيت أبيها القديم. وحاولت أن ترى إن كانت تستطيع استراق نظرة إلى ذلك المبنى القديم حيث نشأت لكن أشجار جوز الهند كانت تحجب رؤيته.

وعندما لاحظ جاي أنها تبحث عنه، قال لها: «ربما من الأفضل ألاّ تريه، فقد أخذ المنزل في التصدع منذ باعته شيريل».

ـ هذا مؤسف. فقد كان منزلاً جميلاً.

اتكأت برأسها إلى الخلف، وحاولت ألاّ تفكر في الماضي، في أبيها. لماذا تتغير الأمور؟

مدّ جاي يده يمسك بيدها يضغطها بعطف، ويقول: «لقد عاش حياة طيبة، يا إليزابيث. كان سعيداً مع أمك، وبعد ذلك مع شيريل. بعض الناس لا يحصلون على حب حقيقي واحد في حياتهم، لكنه كان محظوظاً لحصوله على اثنين. فلا تدعي حزنك يستمرّ!».

ـ أعلم هذا!

ونظرت إلى يده على يدها، فشعرت بدفق من الشوق.

تذكرت مؤاساته لها عند وفاة أبيها، وكيف كان صديقاً طيباً لها. أتراها كانت مخطئة إذ طلبت المزيد؟ في الحقيقة، لم يرغب جاي فيها يوماً، فقد كان زواجهما مجرد تمثيلية... تمثيلية من إخراجها.

افترضت أن عليها أن تطلق سراح جاي الآن، وأن تسمح له بشراء حصتها في حوض بناء المراكب، وتباشر في إجراءات الطلاق.

أخذ قلبها يخفق بألم، وسحبت يدها من يده وهي تقول بمرح محاولة تحويل أفكارها عن الطلاق: «اتصلت بشيريل الأسبوع الماضي».

فقال بجفاء: «لقد وجدت إذن الوقت لإجراء اتصال تليفوني».

ـ لم يكن لدي الوقت للردّ على الرسالة الجميلة التي وصلتنا منها.

ـ إنها تبدو سعيدة جداً، أليس كذلك؟

ـ نعم... وأنا سعيدة جداً لأجلها! لقد صُدمت حين أخبرتها بانفصالنا، وشعرت بالذنب لأنني لم أكتب إليها أخبرها بذلك من قبل.

فقال جاي برقة: «لكان من الأفضل لو أنك لم تخبريها فهي بغنىً عن المزيد من الأخبار السيئة بعد أسوأ خبر تلقته عن وفاة أبيك».

ـ نعم. وقد سرّت جداً حين أخبرتها أننا سنحضر الزفاف.

ألقى جاي إليها نظرة جانبية ساخرة، قائلاً: «هل أخبرتها بأنني سأحضر الزفاف؟».

ـ نعم... ألن يمكنك الحضور؟

ـ نعم، يمكنني ذلك!

ـ لمَ تنظر إلي هكذا إذن؟

فابتسم، وقال: «لقد اتهمتني بأنني متسلّط لأنني أخرجتك من الفندق دون استشارتك. لكنك لا تختلفين عني كثيراً!».

ـ بل أختلف. فهذا أمر مختلف كلياً.

ـ حسناً، لكنك لم تستشيريني!

ـ هذا يختلف عن إخراج شخص رغماً عنه من غرفته في الفندق.

في هذه الأثناء تحولت السيارة لتسلك الطريق المؤدي إلى المنزل.

ـ ستكونين بحال أفضل هنا! من ثم، كان عليّ أن أحضرك إلى البيت! وإلاّ لما صفحت «ماي» عني أبداً.

ـ وكيف حال «ماي»؟

ابتسمت إليزابيث عندما تذكرت مدبرة منزل جاي، المرأة الطريفة المحبة، الودود.

ـ ما زالت كما هي، تزوج ابنها بعد رحيلك مباشرة، وهي الآن تنتظر حفيدها الثاني.

- يا إلهي! لا بد أن كنتها مشغولة تماماً!

وسرعان ما نسيت إليزابيث كل شيء، حين وقع بصرها على المنزل... بدا بجمال صورة على بطاقة بريدية، منزل أبيض مبني على جانب شاهق صخري، يشرف على البحر الكاريبي.

تقول الأسطورة إنه كان كوخاً لقرصان ذات يوم، ولا بد أنه كان قرصاناً ناجحاً جداً.

أوقف جاي السيارة، ثم نزلا يواجهان الحرارة اللافحة.. كان الهواء مشبعاً برائحة البحر المالحة، وكانت عدة طيور تدور في السماء الزرقاء الصاحية، بينما عقبان ضخمة تراقبها منتظرة بأعين شريرة.

بدا لها وكأنها لم تغب عن البيت قط. لاحظت هذا وهي تسير إلى الباب الأمامي. لاحظت العناية البالغة في الحديقة التي غرست أشجارها بيديها.

تبعها جاي حاملاً حقيبتها، فقال وهو يراها تنظر إلى الحديقة: «جاك» ابن «ماي» كان يعتني بالحديقة».

- لقد اعتنى بها جيداً.

وتبعته إلى الردهة. وكانت الأرض الخشبية تلمع تحت أشعة الشمس التي تتسرّب إليها من النافذة. ولاحظت كم الغرف أنيقة!

- أين ماي؟

فقال وهو يسير أمامها إلى الطابق الأعلى: «اضطرت إلى أخذ كنتها إلى المدينة».

بدت عودتها غريبة، وهي تسير في الممرات المألوفة إلى غرفة النوم الرئيسية. ظنت أن جاي سيأخذها إلى إحدى الغرف الاحتياطية، لكنها دهشت وهي تراه يفتح لها باب الغرفة الرئيسية... الغرفة التي كانا ينامان فيها معاً.

فقالت بسرعة: «أنا.. لا أريد أن أنام هنا».

- لمَ لا؟

- حسناً، إنها غرفتك.

فنظر جاي إليها والمكر في عينيه.

- أتخافين ممَّ قد يحصل بيننا؟.

شعرت برغم جهدها لتمالك مشاعرها، بوجهها يتورد.

- لا، بل لا أريد أن أخرجك من الغرفة فقط.

ابتسم وقال: «أنت لا تخرجينني من الغرفة».

وضع الحقيبة ثم تقدم يسدل الستائر على النوافذ ليمنع حرارة شمس الظهيرة. كانت أشعة الشمس على السرير الضخم ذي الأعمدة الأربعة المغطى بغطاء أبيض سميك مقصّب.

وكانت باقة من أزهار استوائية تزين المنضدة، وبجانبها بعض صور زفافهما. كل شيء بدا كما تركته بالضبط، حتى حاجياتها القليلة التي خلفتها وراءها؛ فرشاتها الفضية وبعض مجوهراتها وكتبها..

- أنا لم أعد أستعمل هذه الغرفة. ظننتك قد أخرجت حاجياتي من هنا منذ مدة طويلة!

- لم أكن واثقاً مما إذا كنت تركتها حتى تأتي أنتِ وتقرري.

- هذا حسن!

وأخذت تمرّ بيدها على خشب الأثاث المصقول.

- وأين ستنام أنت؟

- في الغرفة المجاورة. لقد انتقلت إليها منذ رحيلك.

- لماذا؟

- لم أكن أحب هذه الغرفة على كل حال!

- لم تكن تحبها!

قطبت جبينها وهي تتساءل عن السبب فقد كانت تراها أجمل الغرف.

نظر إلى الساعة في يده: «أنا مضطر للإسراع بالخروج يا إليزابيث إننا ننتظر تسلم شحنة في الحوض، وأريد تفحصها. سنتحدث في ما بعد أثناء العشاء، هل لديك مانع؟».

فوجئت قليلاً لأنها سيتناولان العشاء معاً، ولكنهما يعيشان في نفس المنزل، وهذا أمر متوقع.

ـ أفرغي أمتعتك وقومي بما تشائين.

قالت بمرح: «أتعني أن أعتبر نفسي في بيتي؟».

فابتسم لها: «نعم، اعتبري نفسك في بيتك!».

نظرت إليزابيث في عينيه، ثم شعرت برغبة جامحة تدفعها إلى إلقاء نفسها بين ذراعيه، وشعرت أيضاً بالحاجة إلى أن تكون قريبة منه.

أشاحت بوجهها عنه وهي تتمتم متوجّسة: «لا بأس، لكنني حقاً لا أستطيع البقاء هنا طويلاً. عليّ أن أبحث عن فندق آخر».

فقال وهو يهز كتفيه: «حسناً، الجزيرة لا ينقصها الفنادق. سنتحدث عن ذلك في ما بعد».

***

٧ ـ شاطىء الحنين

عندما تركها جاي، دهشت لسرعة مرور الوقت. واكتشفت، وهي تفرغ أمتعتها، ملابس كانت قد نسيتها داخل الخزائن، ملابس رائعة الجمال والتفصيل. فأخرجتها وأخذت تنظر إلى نفسها وما إن حملتها حتى تذكرت كل ثوب منها والمناسبات التي ارتدتها فيها، فشعرت كم هي عزيزة على قلبها. أعاد إليها بعضها ذكريات سعيدة، ولكن بعضها الآخر أجفلها كالثوب الأسود الطويل.

كانت ترتدي هذا الثوب في تلك الليلة التي اكتشفت فيها خيانة جاي لها.. كانا في حفلة في «نادي البولو» عندما سمعت حديثاً في استراحة السيدات. ومنذ ذلك الحين تغيّر كل شيء.

كانت المرأة تقول حالمة: «أظنني وقعت في الغرام، فلم يؤثر فيّ رجل قط كما فعل هذا الرجل».

ميّزت إليزابيث الصوت فوراً، فهي غالباً ما تسمعه في التليفون. إنه صوت سكرتيرة جاي، ليزا.

سألتها رفيقتها: «وهل يبادلك جاي الشعور ذاته؟».

ـ لا أدري، كل ما أعرفه هو أنه لا يحب زوجته. حسناً، إنها لا تلائمه، أليس كذلك؟ فهي لا تملك مقاييس جمالية!

ـ أي من الحاضرات الآن هي زوجته؟

ـ ذات الشعر الطويل الأسود، وهي سمينة قليلاً. اسمها إليزابيث.

ـ آه! لم أدرك أنها زوجته!

- لقد تزوجا منذ حوالى ستة أشهر .

- ستة أشهر؟ إذاً، ما زالا في شهر العسل؟

- نعم، هذا صحيح. لكنه غير سعيد! حسناً، لا يمكنه أن يكون سعيداً، أليس كذلك؟ وإلا لما رغب في التحوّل، إلى غيرها. هذا الزواج مجرد خدعة. ربما تزوجها جاي لمصلحة مالية أو ما شابه. إنه غني جداً، وأعتقد أنها كذلك فهؤلاء الأغنياء يحبون الزواج ببعضهم البعض!

- إذن، تعتقدين أنّه لن يتركها؟

حينذاك ضحكت ليزا: «جاي نظرياً وصوليّ ولكن عملياً هو شيء آخر. فهو متقد المشاعر وأظنه سيتركها، إن لم يكن لأجلي، فلأجل فتاة أخرى. المسألة مسألة وقت فقط!».

وضعت إليزابيث الثوب الأسود على الكرسي، محاولة أن تنسى ذلك. ثم حدقت في صورتها في المرآة، فتذكرت تلك الصدمة، وكيف شعرت بوهن في جسدها استمر أياماً، ومن خلفها كان السرير الضخم ذو الأربعة أعمدة يسخر منها. فقد استمرت في النوم مع جاي بعد ذلك لفترة، لكنها لم تكن تحتمل منه أن يلمسها، اذ كانت تتجمّد كلما اقترب منها. ومع ذلك ظلت ترغب فيه فمزقها صراع داخلي. ثم جاء ذلك المساء الذي تأخر فيه كثيراً عن العودة من العمل. . كان يتأخر عادة في الحوض، ولكن ليس إلى الساعة الحادية عشرة والنصف.

استقلت سيارتها وذهبت إلى هناك. لم تتوقف لتسأل نفسها عما ستفعل إذا رأتهما بالجرم المشهود. لكنها بدلاً من ذلك، أخذت تدعو الله أن تكون ليزا قد لفقت تلك القصة كذباً، وأن تجد جاي في مكتبه يعمل بمفرده. وكم كانت ساذجة!

لقد رأتهما، حينذاك، من الطابق الأسفل في الحوض. . كان المكتب مضاءً وليزا جالسة على مكتبه. وعندما أخذت تنظر إليهما، مالت المرأة إلى الأمام وقبلته بحرارة بالغة. . حينذاك تسمّرت إليزابيث في مكانها لبرهة ثم استدارت مبتعدة. لقد منعها الإذلال الذي شعرت به من

مواجهتهما بالجدل والاتهام. فكان كل ما ارادته حينها هو الهرب.

لم يكن هناك بديل لذلك. كان عليها أن ترحل بالبقية الباقية من كرامتها. لكن ذلك كان أقسى شيء قامت به في حياتها.

وفجأةً، أجفلت لسماعها صوت انغلاق الباب الخارجي ونظرت إلى ساعتها. كانت تقترب من السادسة، لا يمكن أن يكون القادم جاي إلا إذا غيّر مواعيد عمله.

بعدما أعادت الملابس إلى الخزانة، تفحصت مظهرها العام في المرآة بسرعة، ثم خرجت من الغرفة.

وصلت إلى الطابق السفلي في الوقت الذي دقت فيه ساعة الحائط القديمة معلنة السادسة.

- إليزابيث، ما أجمل أن أراك!

اندفعت مدبرة منزل جاي من الردهة، مبتسمة.

- مرحباً يا «ماي».

وقالت ماي بعد أن نظرت بتعجب: «يا إلهي ما الذي حلّ بك؟ لقد هزلت تماماً!».

- شكراً لك!

قالت لها ماي بمرح: «لم أقصد أن أمدحك. إنك بحاجة إلى تغذية! إن لندن لا تناسبك بالتأكيد».

ضحكت إليزابيث: «هذا لأنني افتقدت طعامك».

وبدا السرور على المرأة.

- سأطهو طعاماً مميزاً الليلة. . . ترحيباً بك!

- شكراً يا ماي، هذا لطف منك حقاً!

ربتت المرأة على ذراعها: «لقد افتقدناك حقاً».

قالت هذا ثم هرعت عائدة إلى المطبخ.

* * *

- أما زلت تريدين أن تذهبي إلى فندق؟

جعل هذا الصوت الساخر إليزابيث تستدير بدهشة، إنه جاي! كان واقفاً عند الباب.

ـ لا يمكنك أن تغادري الآن. لقد اتخذت ماي قراراً بتسمينك. وأنت تعرفين حب ماي للتحدي!

أجابته بمرح: «لكنني لا أريد أن تقوم بهذا التحدي!».

تسارعت خفقات قلبها كالعادة عند رؤيته.

ـ إنها المرة الثانية هذا النهار التي تفاجئني فيها! لم أعتقد أنك ستأتي إلى البيت في هذا الوقت المبكر!

ـ جئت لأتمّ حديثاً لم ينته بعد، أليس كذلك؟

كانت قد لبست ثوباً مكشوفاً ذا لون ليلكي فاتح. فبدا قوامها رشيقاً وعيناها زرقاوين واسعتين.

قال برقة: «بالمناسبة، تبدين جميلة!».

ـ شكراً.

وشعرت بقلبها ينقبض، فسارعت إلى الردهة، وهي تشعر به يراقبها. أرادت أن تبدو جذابة، أن تجعل جاي ينظر إليها ويندم لأنه تركها تذهب، وفي نفس الوقت، لم ترد أن تبدو وكأنها تحاول اجتذابه. وكانت تأمل أن يفي هذا الثوب بالغاية. لكنها لم تعد واثقة الآن. . .

كانت تقف بجانبه وبدا لها أن الحديث توقف عند هذا الحد، فأخذت تبحث في ذهنها عن موضوع. لاحظت أنه غير ملابسه وارتدى قميصاً أزرق وبنطلوناً يناسبه. وكان شعره رطباً قليلاً من أثر «الدوش».

ـ منذ متى وصلت إلى البيت؟

ـ منذ نصف ساعة تقريباً.

ـ لم يكن من عادتك إنهاء عملك مبكراً.

ـ أحياناً أفعل هذا!

جعل صوته الأبح خفقات قلبها تتسارع. حوّلت عينيها عن تلك البنية القوية، وعن وجهه الوسيم.

سألها فجأة: «هل تريدين شراباً قبل العشاء؟ أذكر أنك كنت تحبين عصير التفاح مع الثلج».

ـ لديك ذاكرة جيدة! ولكني أرغب الآن بالكولا إن لم يكن لديك مانع.

ـ ليس لدي مانع طبعاً. إننا مهذبان تماماً. ألسنا كذلك؟ لم يكن الوضع كذلك عندما رحلت من هنا منذ أكثر من عام فنحن لم نكن مهذبين مع بعضنا البعض إلا نادراً!

حوّلت نظراتها عنه، مبدية عدم ارتياحها للموضوع.

ـ عليّ أن أقول إن عودتي تبدو غريبة!

عاد إلى جانبها بعدما سكب لها ما طلبته. واحتكت أصابعهما لحظة على الكوب البارد، ومع ذلك بعث ذلك حرارة قويّة في جسدها.

ـ شكراً!

أخذت جرعة كبيرة فشرقت، ثم أخذت تسعل بحدة: «آسفة. . .».

وحاولت ألاّ تسعل مرة أخرى، ممّا جعل عينيها تدمعان.

مدّ يده يربت على ظهرها ثم سألها: «هل أنت بخير؟».

جعلتها ملامسته لظهرها تحبس أنفاسها. فقالت بضعف وهي تأخذ جرعة أخرى: «نعم. . . أنا بخير!».

أخذ يفرك ظهرها لحظة. . كانت أصابعه تلامس بشرتها الحريرية.

فقالت له بحدة كبيرة: «أنا بخير حقاً، يا جاي!».

فتمتم بجفاء وهو يبتعد عنها: «لا حاجة بك لإظهار كل هذا الانزعاج».

ـ آسفة، في الحقيقة يشعرني هذا بالتوتر قليلاً.

ـ حقاً؟ لماذا؟

وبدا عليه عدم الاكتراث بما قالت، فقطبت جبينها: «أظن هذا واضحاً. إننا منفصلان، ومع ذلك نحاول أن نتصرف وكأن شيئاً لم يكن، وكأننا لم نفترق قط. هذا شيء غير مألوف».

ـ كثير من الأزواج ينفصلون ويبقون أصدقاء!

ـ حقاً؟

وقطبت جبينها، محاولة أن تفكر في بعض الأزواج.

ـ كنا صديقين قبل الزواج، لِمَ لا يبقى الأمر كذلك بعد الانفصال؟

واشتبكت عيناه بعينيها. فتناقضت كلماته مع ما عكسته نظراته من شوق إليها. ذكرها هذا بليلة حفلتها، تلك الليلة الحميمة.

ـ ألا يزعجك هذا إذن؟

ـ ماذا؟

ـ وجودي هنا؟

فضحك: «لقد أزعجتني على الدوام، وأظنني اعتدت على ذلك».

أذابتها ضحكته وكانت ضعيفة هشة أمامه، وتساءلت عن تلك المشاعر التي اختلجت في صدرها.

سمعته يقول بتكاسل: «الشمس تغيب».

فنظرت إلى الحديقة ورأت الشمس تتوارى بسرعة، ولون الشفق يصبغ البحر، كان لجمال هذا المنظر وقع يحبس الأنفاس.

ـ هل نخرج إلى الحديقة ونجلس؟

وفتح الباب قائلاً: «لقد مدت ماي المائدة في الفناء».

لكن إليزابيث لم تتبعه حالاً. فنظر إليها مستفهماً: «ما الأمر؟ كنت تحبّين دوماً تناول الطعام في الخارج».

ـ نعم.

في الواقع كانت تحب تناول الطعام في الهواء الطلق، لما في ذلك من شاعرية. أما الآن فهي تريد أن تبتعد عن أيّ لمحة شاعرية.

ـ لكنني أعاني هذه الأيام من حمّى مرتفعة!

فبدا عليه الاهتمام وهذا ما أشعرها بأنها محتالة.

ـ أحقاً؟ حسناً. إذا بدأت تسعلين، فسننتقل إلى الداخل. ما رأيك؟

كانت المائدة جاهزة بالفضيات على غطاء ابيض، مع باقتين صغيرتين

من الأزهار تحملان شمعتين. أمسك بالكرسي لها ريثما جلست.

فقالت وهي تنظر إلى البحر بعد مغيب الشمس وقد غشي الظلام المكان: «نسيت السرعة التي تغيب فيها الشمس هنا».

خيّم الصمت بينهما لهنيهة، ثم سألته مترددة: «كيف كان العمل في الحوض اليوم؟».

فضحك.

ـ لمَ تضحك؟ هل قلت شيئاً مضحكاً؟

التمعت عيناه هزلاً: «لا شيء، ولكن يبدو عليك التزمت واللباقة، وكأنك قررت أن تكوني مؤدبة، بينما يفترض أن يكون السؤال (كيف كانت الأمور في مكتبك اليوم، يا عزيزي؟)».

فضحكت إليزابيث بالرغم منها، وقالت: «آسفة، لكنني كنت مهتمة حقاً».

ـ حسناً، وقعت مشاكل. فقد وصل الطلب الذي كنت أنتظره، ولكنه لم يتوافق مع المواصفات لذا أرجعته، وهذا يعني أننا نعاني قصوراً في بعض المواد ولكنهم قالوا إنهم سيعاودون إرسالها غداً.

ـ يبدو أن ضغط العمل شديد!

ـ ليس تماماً فهو يوم عادي. ومن حسن الحظ أن لدي فرقة جيدة من العمال حولي، وهذا يعني الكثير!

أتراه شمل بكلامه ليزا أيضاً؟ أما زالت تعجبه؟ وعاد صدى كلمات ليزا ورفيقتها في تلك الليلة إلى ذهنها وتمنت لو تتمكن من نسيانها.

حاولت أن تحوّل ذهنها إلى شيء أكثر واقعية.

ـ سآتي معك إلى العمل غداً، إذا لم يكن لديك مانع.

ـ لا مانع طبعاً.

ـ وبعد ذلك يجب أن أبحث عن فندق آخر!

ـ وما الغرض من ذلك؟ أنت هنا الآن، ويمكنك البقاء!

ـ في الواقع لا أشعر أن وجودي هنا صواب!

فقال برقة: «لكنه يبدو صواباً لي».

ـ أحقاً؟

وبدا التردد في عينيها. شعرت وكأنها تخطو في حقل ملغم.. لو أن شخصاً أخبرها منذ بضعة أيام أنها ستقيم في منزل «كوخ قصب السكر» مرة أخرى، لما صدقته.

ـ جميل أن تكوني مرة أخرى في البيت ولو لمدة قصيرة!

قال ذلك من دون حماسة، وتشابكت أعينهما عبر المائدة، وفكّرت أنّ ما قاله هو مجرد إطراء لأنه بحاجة إليها هذه الفترة.

ـ وماذا بالنسبة إلى... صديقتك؟ ألا تمانع في أن أكون هنا؟

لم تستطع أن تتلفظ باسم ليزا. بدا وكأن هذا الاسم يلتصق بحلقها.

فقال ضاحكا: «أي صديقة تتحدث عنها؟».

ـ أتعني أن هناك أكثر من واحدة؟

فابتسم: «بالرغم من كل شيء، فأنت ما زلت زوجتي، ووجودك هنا لا يعني أحداً آخر».

بدا وكأن ليزا لا تتدخل بأموره الشخصية، فسرّتها هذه الفكرة كثيراً. ربما كل ما في الأمر هو أن جاي هو سيد نفسه ويقوم بكل شيء من دون أن يكترث بالظروف المحيطة به أو بالآخرين.

ولكن، لو كانت ليزا لا تزال موجودة عاطفياً، لما رضيت عن هذا الوضع. ربما الأفضل أن تبقى فترة لتضايقها، وتدعها تذوق ولو قليلاً مما تعانيه هي. وابتسمت لهذه الفكرة.

خرجت إليهما ماي مسرعة بطعامهما وهي تقول لإليزابيث: «لقد طهيت لك هذا الطعام خصيصاً».

ـ آه! إنها الأكلة المفضلة لديّ! شكراً يا ماي، إنك تدلليني في الحقيقة!

ـ أنا لا أدللك أكثر مما تستحقين!

قالت ماي هذا وهي تسرع عائدة إلى المطبخ. والتفتت إليزابيث إلى

جاي بعد أن أصبحا وحدهما وقالت: «إنها رقيقة جداً!».

ـ حسناً، إنك تدركين أن ماي هي أحد أكثر المعجبين بك. لم تكفّ عن التذمّر بعد رحيلك!

فضحكت إليزابيث فيما قال جاي بجفاء: «حسناً، هذا ما فعلته ماي! لم تنفك تلومني على رحيلك! فهي تعتبرك امرأة رائعة!».

التمعت عينا إليزابيث، وقالت هازلة: «أحقاً؟ وماذا قلت لها أنت؟».

ـ قلت إنه لم يكن لي خيار في الأمر، وإنك كنت غير سعيدة.

وتابع قائلاً: «أنا آسف!».

ـ ولِمَ الأسف؟

ـ لجعلك غير سعيدة. كان هذا آخر ما كنت أريده.

نظرت إليه وشعرت للحظة بالحرمان الكلي.. تعتقد أنه لم يرد أن يؤلمها، لكن معرفتها بذلك لم تخفف عنها، وإنما زادت من آلامها. ما كان لهما أن يتزوجا. كانت فكرة جنونية للغاية، قدّر لها الفشل منذ اللحظة التي عرضتها فيها.

وهزت رأسها: «لنترك الحديث عن الماضي يا جاي. ودعنا ننظر إلى المستقبل!».

ـ لا بأس، ولكن علينا مناقشة بعض الأمور!

ـ نعم... العمل. هل استطعت تغيير موعد الاجتماعات مع البنك؟

فتردد: «لدينا موعد عصر الغد، وآخر صباح الخميس».

ـ حسناً! سيعطيني ذلك فكرة عن كشوف الحسابات وعن حالة العمل.

لاحظت ابتسامة غامضة على شفتيه. ما الذي يفكر فيه؟ أخذت تتساءل، وقد شعرت أن شيئاً آخر يجري، لكنها عادت فنبذت هذه الفكرة. ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ إنه، كالعادة، يفكر في العمل.

ـ إذا لم يكن لديك مانع، علي أن أتصل بمكتبي في لندن كذلك.

فسألها: «لماذا؟».

- وعدت جون بأن أترك له رقم تليفون ليمكنهم الاتصال بي إذا ما احتاجوا إلى ذلك.

- يا لك من مخلصة لعملك!

- كنت في وسط حُساب مصرفي كبير، فاستلم كولين مني العمل، ولكن إذا طرأت أي مشكلة مستعصية، فقد يحتاجون إلى الاتصال بي.

- لا أظن أن جون يريدك بعيدة عن نظره كثيراً!

قطبت جبينها: «وأنا لن أبتعد عنه كثيرا».

- دعيهم إذن يتخبطون في حساباتهم.

فنظرت إليه بذعر: «لا يمكنني ذلك».

- هنالك أشياء ينبغي أن يكون الضمير حياً فيها، وهناك أشياء من الأفضل تجاهلها.

- ولكن جون يقدّرني كثيراً.

سألها بهدوء: «ولكن هل سيترك زوجته لأجلك؟».

فحدقت إليه وجلة: «لا أفهم...».

- إنه الشخص الذي تخرجين معه. أليس كذلك؟

شعرت بوجهها يتوهج احمراراً من الارتباك والخجل. إنه يظنها على علاقة بجون! أرادت أن تقول إنها لا تخرج مع أحد، لكن هذا سيجعلها تبدو حمقاء جداً.

- هذه سخافة، لا، ليس جون! جون صديقي وهو متزوج كما قلت أنت بنفسك!

أخذ جاي ينظر إليها، وإلى احمرار وجهها والتوتر في صوتها، فلم يصدقها. إنها تكذب! وهو متأكد من أن جون هو صديقها.

- نعم، هو متزوج. ولكن الرجال المتزوجون يحبون أن يشعروا بالاستقرار في امتلاك زوجة، وبالإثارة في امتلاك عشيقة.

قالت بحدة: «تتحدث عن خبرة، أليس كذلك يا جاي؟».

قال برقة: «بل أتحدث بصفتي شخصاً يهتم بك ولا يريد أن يراك

تتألمين».

- حسناً، اهتم بشؤونك إذن.

- ربما ما كان يجدر بي أن أقول شيئاً، ولكن...

قاطعته بغضب: «لست على علاقة غرامية مع جون».

وسكت الاثنان عندما فتح الباب ودخلت ماي لكي ترفع الأطباق الفارغة. فقالت لها إليزابيث مسرورة بهذه المقاطعة: «لقد كان الطعام لذيذاً، يا ماي».

- يسرّني أنك أحببته! سأترككما لتنهيا الشراب وسآخذ القهوة والحلوى إلى الردهة إذا شئتما.

وعندما خرجت المرأة، ساد الصمت. وكان في عيني إليزابيث غضب شديد.

- اسمعي، أنا آسف! سنتوقف عند هذا الحد.

- لا تملك حق استجوابي عن حياتي الخاصة!

- لكنني ما زلت زوجك!

- نظرياً فقط. فهذا مجرد كلام على الورق.

نظر في عينيها: «أظن ذلك.. لكنني أعتقد أن بعض الناس قد يعترض على مثل هذه النظرة الساخرة إلى الزواج».

- أنا لا أتحدث عن الزواج عموماً، بل عن زواجنا نحن!

- هذا ليس موضوعاً سهلاً!

- هذا صحيح!

فقال بلطف: «أريد مصلحتك فقط من كل قلبي! لكن الحق معك تماماً، فأنت حرّة بحياتك الشخصية واختيار من تصادقين!».

ولم يعجبها اختياره للكلمات.

في تلك الأثناء، كانت ترى الأمواج البيضاء تتكسر على الشاطىء، فتذكرت ليلة عرسهما. لقد تناولا العشاء، حينذاك، هُنا، على هذه الشرفة.

بعد العشاء، نزلا يتمشيان على الشاطىء. . أمسك جاي بيدها يشدّها إليه. . . ثم عانقها وكان عناقاً أشعل النار في كيانها. . وأضاء شيئاً في أعماقها لم ينطفىء قط بعد ذلك، رغم كل ما جرى بينهما.

وقال يجرّ أفكارها من جهنم تلك الذكريات: «ما الذي تفكرين فيه؟».

نظرت إليه: «لا شيء!».

لم تستطع أن تخبره عما تفكر فيه، عن ليلة عرسهما. لا ينبغي عليها أن تفكر في أشياء كهذه فذلك لا يفيد في سوى إثارة الماضي.

سألها فجأة: «أتحبين أن نتمشى على الشاطىء قبل تناول القهوة؟».

فأجفلت. هل نسي حقاً كل شيء عن ليلة عرسهما؟ لو لم ينسها لما اقترح مثل هذا الأمر أبداً. . وتملكها الغضب، فكيف استطاع أن ينسى المشاعر العنيفة؟ ما زالت حتى الآن تشعر بالشوق كلما تذكرت كيف استلقيا معاً على ذلك الشاطىء المهجور، والأمواج الدافئة تتدفق حولهما.

ولم تستطع أن تقابل عينيه: «لا، شكراً يا جاي! أريد أن أنام، فأنا متعبة قليلاً».

ـ ألا تريدين قهوة أو حلوى؟

فهزت رأسها نفياً، فقال: «لا عجب في أنك تبدين هزيلة إلى هذا الحد».

ـ أنا لست هزيلة.

نظر إليها بثبات: «لقد خسرت الكثير من مستديرات جسدك التي كنت أحبها».

تجنبت النظر إليه، إذ ضايقها الموضوع. لم يكن يحب جسمها الممتلىء قليلاً، فما زالت تتذكر كلام ليزا الهازىء عن قوامها. . . ولكن كان على ليزا أن تهزأ طبعاً، فقد كانت بالغة النحافة، وقد اختارها جاي لعلاقة غرامية!

ـ كنت سمينة.

ـ لا لم تكوني سمينة قط! بل كان قوامك جذاباً! لكنك الآن نحيفة جداً.

قالت بحزم: «أنا مسرورة لأنني صرت أنحف».

ـ أتعلمين أن الاعتقاد بأن الرجال يحبون المرأة البارزة العظام هو اعتقاد خاطىء؟

ـ وهل تعلم أن اعتقادكم بأن النساء يرغبن بالنحافه لإرضاء الرجال هو اعتقاد خاطىء. . . إننا، في الواقع، لا نهتم مثقال ذرة لفكرة الرجال عنا!

فقال ضاحكاً: «هذا حسن، لأنني أحسب أن أي رجل سيطلب منك أن تأكلي كعكة زفافك!».

قالت بعناد: «ليس كل رجل».

قال بجفاء: «أحقاً؟ هل هذا هو السبب في نقصان وزنك؟ لكي تسرّي صديقك؟».

ـ لا. لقد أخبرتك أنني فعلت هذا لأسرّ نفسي.

في الواقع لم تحاول إليزابيث أن تنقص وزنها أبداً، لقد هَزَل جسمها منذ تركت جاي.

تابعت: «لم أنحف إلا قليلاً، فأنا لست نحيلة جداً!».

فقال ضاحكاً: «بل أظنك كذلك. والأهم أنك فقدت الوزن في الأماكن الهامة! لقد لاحظت ذلك في الليلة التي أمضيناها معاً في لندن. . .».

ـ كفى يا جاي. . .

وأخذ قلبها يخفق بعنف الآن.

ـ لا أريد أن أفكر في ما حدث بيننا في لندن!

ـ لم يبق لدينا الكثير لنتحدث عنه، أليس كذلك؟

ـ إن حوض المراكب هو سبب وجودي هنا. هل نسيت؟

ـ لم أنس طبعاً! ولكني أحب أن أعلم ما إن كان هناك حمل نتيجة

ليلتنا معاً.

زاد هذا السؤال الفاتر اللهجة في توتر أعصابها. سكتت لحظة لا تجيب، وتلاقت أعينهما. ماذا سيقول لو كانت حاملاً يا ترى؟ وماذا سيقترح فعله؟ إنهاء الحمل؟ أشعرتها هذه الفكرة بالمرض.

ثم قالت بهدوء وهي تقف: «إذا كان هناك شيء، فسأخبرك! والآن، إذا سمحت...».

***

٨ ـ الوجه الآخر

استيقظت إليزابيث الساعة الخامسة والنصف صباحاً. وبقيت مستلقية تحدق في ظلام الغرفة، متسائلة عما يجعلها مستيقظة تماماً. تذكرت فجأة أن الساعة الآن هي العاشرة والنصف حسب توقيت لندن.

نزلت من السرير ثم ارتدت معطفها المنزلي. لم تستطع العودة إلى النوم، ففكرت أنه من الأفضل أن تنزل وتشرب شيئاً.

كان الظلام سائداً في الخارج، وتباشير الفجر تبدو في الأفق.. سكبت لنفسها كأس ماء، ثم أحضرته إلى الردهة لتجلس على إحدى تلك الأرائك المريحة، لكي تستمتع برؤية بزوغ الفجر.

وهناك وجدها جاي بعد ساعة، متكوّمة على الأريكة غارقة في النوم.. كان معطفها الحريري المنزلي الأزرق مفتوحاً كاشفاً عن قميص نومها المزيّن بالدانتيل، وعن شيء من جمال جسمها الرائع.

سمح لنفسه بأن ينظر إليها عدة لحظات. تذكر عندما كانت تنام معه في سريره الضخم في غرفته.. تذكر عندما كان الإرهاق يتملكها، فتستلقي بين ذراعيه ضعيفة دافئة. لكم حركت هذه الذكرى المشاعر في جسده على الفور..

فتحت عينيها الزرقاوين الواسعتين، فابتسم لها: «صباح الخير، ألم يكن سريرك مريحاً؟ أم تراك تفضلين هذه الأيام الرقاد على الأرائك؟».

ـ آسفة!

ونظرت حولها وكأنما حيّرها أن تجد نفسها في غرفة الجلوس.

- لا أدري ماذا حدث فأنا أستيقظ تماماً تارةً ويتملكني النعاس تارةً أخرى.

وجلست تحكم أطراف معطفها المنزلي حولها، وتمرّ بيدها على شعرها القصير بخجل.

رآته مرتدياً كامل ملابسه، بنطلون جينز وقميصاً مقفلاً فسألته: «كم الساعة الآن؟».

- السابعة تقريباً، أتريدين فطوراً؟ كنت على وشك صنع القهوة والخبز المحمص لنفسي، لكن بإمكاني أن أقلي لك بيضاً ولحماً إذا شئت!

هزت رأسها: «تكفي القهوة. سأذهب لأرتدي ملابس».

ثم وقفت، فقال ضاحكاً: «لا تزعجي نفسك. فأنا أعرفك بملابس أقل من هذه بكثير».

جعلها صوته الأجش تحمّر خجلاً، لكنه أثار أيضاً في داخلها شيئاً أعمق من الخجل. أثار شعوراً أشعل كيانها حتى أصابها الدوار.

- ليس هناك سوانا، نحن الإثنين، في البيت، ماي لن تأتي قبل الظهر.

وابتعد عنها جاي نحو المطبخ، وسرها ابتعاده.. سرها أن تجد فرصة تتمالك فيها نفسها.

- كيف كان نومك؟

أجابت بغموض: «ممتاز، باستثناء استيقاظي مبكرة».

فابتسم: «لم تستيقظي بعد، أليس كذلك؟».

وتبعته إلى الباب وهي تعيد إحكام معطفها حولها، ثم تعترف بأسف: «لا... ليس تماماً!».

- تعالي. سأصنع لك القهوة!

وتبعته إلى المطبخ، فوضع لها مقعداً لتجلس عليه أمام مقصف الفطور.

أخذت تنظر إليه وهو ينتقل بكفاءة في المطبخ العصري. وتصاعد

عبق القهوة في جوّ الصباح، الدافىء، ما جعلها تشعر فجأة بالجوع.

ونظر إليها مستفهماً وكأنه قرأ أفكارها: «ما رأيك في بعض الكرواسان؟».

- هذا حسن، شكراً!

خارج النافذة، رأت السماء الزرقاء الصافية.. كان يوماً آخر حاراً رائعاً، فصعب عليها التصديق أن الناس في لندن يرتدون القبعات والمعاطف السميكة ليصدوا عنهم برد شهر شباط القارس.

كان جميلاً أن تعود إلى هنا وتجلس في مطبخها مرة أخرى.

وضع القهوة والكرواسان بجانبها، فالتفتت إليه قائلة: «يبدو أن الجو حار جداً هناك».

فابتسم: «إنه أبرد وقت في النهار. إذا شئت أن نسبح في البحيرة قبل أن تذهب إلى الحوض، فالوقت مناسب!».

- لا... ربما فيما بعد!

وأخذت ترشف قهوتها. كان مذاقها جيداً، الذ من أي قهوة شربتها منذ وقت طويل.

قال فجأة: «كانت بداية حديثنا الليلة الماضية أثناء العشاء غير جيدة! ما كان لي أن أسأل عن جون وربما كان ذلك عدم إحساس مني».

قال هذا وهو يراقبها ملاحظاً الاحمرار الخفيف الذي علا وجنتيها.. ونعومة شفتيها، وأهدابها الكثيفة السوداء التي كانت تخفي عينيها.

- كنت متعبة قليلاً الليلة الماضية... حساسة قليلاً. سننسى هذا الأمر، أليس كذلك؟

- حسناً، وبهذا نعود صديقين؟

وانحنى إليها فتوقف قلبها لحظة عن الخفقان ظناً منها أنه سيقبلها لكنه قبلها فقط على وجنتها.

ثم ابتعد قائلاً: «هذا حسن، وأنا مسرور. فهذا يجعل كل شيء أسهل كثيراً».

ـ لأجل الحوض؟

كانت تريد إيضاحاً رغم علمها أن هذا ما كان يقصد.

ـ نعم. . . طبعاً!

رنّ التليفون في الردهة، فلم يجب جاي على الفور، إلا أنه عاد فقال متذمراً: «من الأفضل أن أرى من المتكلم».

ضغطت إليزابيث شفتيها بأصابعها لتكبح الشوق الذي يكاد يغمرها. رغبت في أن يعانقها. . كانت حاجتها لذلك مخيفة، وخيبة الأمل عنيفة. وأخذت تتساءل غاضبة، ماذا حدث لها؟ إنها، أحياناً، لا تفهم نفسها أبداً. وعادت ترتشف قهوتها، محاولة أن تبعد هذه الحادثة عن ذهنها. وعندما عاد جاي، قال لها باختصار:

ـ إنهم المموّلون! يطمئنونني إلى أنهم سيرسلون طلباتنا اليوم.

وأنهى قهوته.

ـ من الأفضل أن أذهب. هل أنت قادمة معي، أم تريدين أن تلحقي بي في ما بعد؟ سيارتك ما زالت في الكاراج!

ـ لا بل سآتي معك!

ـ حسناً، لكنني مضطر للذهاب بعد ثلث ساعة.

فأسرعت تطمئنه: «سأكون معك بعد عشر دقائق».

لم يكن لديها وقت لاختيار ملابسها، وهكذا ارتدت أول ما وقع في يدها، فكان ثوباً وردياً يصل إلى ركبتيها.

لم تلاحظ أن جاي كان ينظر إلى ساقيها إلا بعد أن اتجها إلى الحوض، وهذا ما جعلها تتساءل عما إذا كان عليها أن ترتدي ثوباً أكثر حشمة. رغم جلوسها في الشمس أمس حين كانت تنتظر جاي، بقي لون ساقيها أبيض قليلاً.

ـ معك حق، عليّ أن اجلس قليلاً في الشمس قبل أن أعود إلى لندن! فأنا أبدو نظيعة في هذا الثوب القصير.

قالت ذلك ببشاشة، فنظر إليها مرة أخرى.

ـ كنت أفكر فقط في مبلغ جمال ساقيك.

فقالت محاولة إنكار ما شعرت به من سرور لهذا المديح: «ما كان ينبغي لك أن تلاحظ شيئاً كهذا».

نظر إليها هازلاً: «إليزابيث، اليوم الذي أتوقف فيه عن ملاحظة شيء كهذا، هو اليوم الذي يدفنونني فيه تحت التراب».

فقالت ساخرة: «نعم، لطالما كنت رجلاً ذا دم حار!».

استدار جاي بالسيارة متجنباً عقبة في الطريق، وبقي تركيزه ثابتاً على انعطافات والتواءات الطريق، إلى أن دخلا حوض بناء المراكب.

كان موضع العمل حين رأته آخر مرة عبارة عن مبنى صغير ورصيفين حيث تُبنى المراكب. وكان فيه حوالي ثلاثين عاملاً يعملون فيه. أما الآن، فأخذت تتساءل عما إذا كانت تنظر إلى نفس المكان. كان ضخماً، فيه مستودعان هائلا الحجم يحتويان على عدد كبير من المراكب والعمال والأرصفة الجديدة لأجل مراكب أكبر.

ـ ما رأيك، أيتها الشريكة؟

سألها بزهو وهو يوقف السيارة بعيداً عن أشعة الشمس. فهزت رأسها بحيرة بالغة: «هذا عظيم! لم يكن لديّ فكرة عن عملك هذا في الحوض».

ـ حسناً، لو قرأت التقارير التي أرسلتها إليك بالفاكس، لعلمت بكل هذا. ألم تلقي عليها ولو نظرة؟

ـ نعم. لقد فعلت طبعاً!

فنظر إليها غير مصدق: «إذا تعاملت معها بنفس الطريقة التي تعاملت بها مع الأوراق الأخيرة التي أرسلتها إليك، فلا بد أنها بقيت ملقاة على مكتبك دون نظرة منك!».

ـ بل نظرت إليها.

تذكرت تلك الأوراق الرسمية الطابع التي وصلتها في مكتبها في لندن. تذكرت أنها تفحصتها لدى إحضارها من جهاز الفاكس، راجية أن تجد رسالة شخصية يصف لها فيها كم يفتقدها. لكنها كانت فقط مركزة

على الحوض.

تابعت تقول: «أتفقّد دائماً الرسائل التي تصلني بالفاكس. ربما كان يجد بك إرسال أوراقك الأخيرة بالفاكس بدلاً من إرسالها مع رسول».

نظر إليها بعينين تفيضان هزلاً: «لكنك لم تقرئي تلك الأوراق التي وصلتك بالفاكس، بإمعان. إذ كانت تتضمن أشياء تتطلب توقيعك، وأنت لم تعيديها قط. وكان هذا بالضبط ما دفعني إلى أن أطلب منك أن توقعي الأوراق الأخيرة».

أجابت برقّة: «حسناً، ربما شعرت أنني لست بحاجة إلى قراءتها بإمعان، فأنا أثق بك».

ـ أحقاً؟

ونظر إلى وجهها متفحصاً.

ـ طبعاً كنت أثق بك! كان أبي دوماً يقول إنك تعلم ما تقوم به في الحوض. . كان يثق بك تماماً فلماذا لا أثق بك أنا؟

كان صوته ساخراً وهو يقول: «هذا يملأني زهواً!».

وفتح باب سيارة الجيب، ثم قال: «هيا بنا! سأجول بك في المكان».

وعندما تبعته، نظرت إلى المكان حيث كان يقع مكتب أبيها. أترى ليزا موجودة فيه؟ أخذت تتساءل، وإذا بها فجأة تشعر أنها ليست ما يرام. لم تكن تعلم ما إذا بإمكانها أن تواجه ليزا. صحيح أنها تريد أن تضع الماضي خلفها، لكنها لم تكن مستعدة لمواجهة الغول الكامن فيه.

ـ كما ترين، لقد استثمرت مالاً كثيراً في تقنية حديثة.

كان يرفع صوته ليعلو على ضجيج الآلات التي كانت تعمل.

ـ كان ضرورياً أن أضمن العقود الجيدة، وأن أضاعف عدد المستخدمين أربع مرات.

قالت إليزابيث متظاهرة بعدم الاكتراث: «لا أرى حولي أياً من الوجوه القديمة».

ـ هناك شخص أو اثنان.

وازداد الضجيج حولهما.

ـ لنذهب إلى المكتب فهو أكثر هدوءاً.

واستدار ليسير أمامها صاعداً الدرجات الخشبية إلى المنطقة القديمة. . تذكرت صعودها هنا ليلة كشفت جاي وليزا بمفردهما.

تذكرت رؤيتها لهما من الباب الزجاجي.

ـ لم تتغير الكثير من الأشياء هنا، صحيح أن كل شيء يعمل اليوم على الكمبيوتر، لكن بعض الأشياء ما زالت كما هي، وهذا ما يشعر المرء بالاطمئنان.

رأت الباب الزجاجي فشعرت بصدرها يضيق توقعاً لرؤية منافستها وجهاً لوجه.

ودفع الباب ففتحه. وإذا بصوت انثوي يقول باختصار: «صباح الخير يا جاي. وصلك اتصالان تليفونيان من «بن رابدنغ». أخبرته أنك ستتصل به حين تحضر».

نظرت إليزابيث إلى المرأة الجالسة خلف المكتب. كانت شابة شقراء جذابة، لكنها ليست ليزا. فشعرت إليزابيث براحة عارمة وكأن حملاً سقط عن كاهلها.

ـ شكراً يا كارولين. بالمناسبة، هذه هي زوجتي إليزابيث، أقدم إليك كارولين يا إليزابيث. إنها سكرتيرتي.

ابتسمت كارولين لها، ثم عادت تحضر بعض الملفات فبادلتها إليزابيث الابتسام، وهي تشعر بالبهجة. وكان هذا جنوناً منها. . .

أشار جاي بسرعة إلى الباب المؤدي إلى مكتبه الخاص، فلاحظت أن جاي ما زال يحتفظ بمكتب أبيها وكرسيه. وكانت صورته لا تزال موجودة حيث وضعتها منذ سنوات كثيرة. ولكن كل شيء آخر عدا ذلك تغير.

ـ ما رأيك الآن؟

ـ كل شيء رائع!

فقال ضاحكاً: «سيكون كذلك عندما نحصل على قرض من البنك

لننشىء ملحقاً آخر».

ـ هل نحن بحاجة إلى ملحق آخر؟ لقد قمت بالكثير.

ـ ما زلنا بحاجة إلى مزيد من التوسّع، فأنا أرفض طلبيات العديد من المشاريع التي ليس بإمكاننا إنجازها لضيق المجال.

سمعت قرعاً على الباب وأطلت كارولين.

ـ جاي، لقد أحضرت الطلب الذي كنت تتوقعه. هل تريد تفحصه الآن؟

ـ سأحضر حالاً.

ثم نظر إلى إليزابيث: «لن أتأخر، اجلسي واسكبي لنفسك قهوة».

واشار إلى جهاز صنع القهوة القائم قرب النوافذ.

ما إن انغلق الباب خلفه، حتى أخذت إليزابيث تنظر في أنحاء المكتب. استغربت أن تجد نفسها من جديد في ذلك المكان.

شعرت وكأن أباها سيدخل إلى الغرفة في أي لحظة، قائلاً بابتسامته المشرقة (ما أجمل أن أراك، يا حبيبتي).

رباه، كم تفتقده وتشتاق إليه! أخذت تمرّ بيدها على خشب المكتب الناعم، هذا المكتب الذي جلس خلفه سنوات كثيرة، وتحوّلت عيناها إلى صورته، فخاطبته برقة: «كانت الوصية غلطة سيئة. أعلم أنك كنت تحاول مدّ يد العون... وأعلم أنك ظننت أن جاي مناسب لي... لكنها كانت فكرة جنونية».

سكبت لنفسها قهوة، ثم وقفت تنظر من النافذة إلى التقدم التقني للحوض. إن الفضل في ذلك يعود لجاي، الذي بذل جهداً كبيراً لتغييره.

انفتح الباب خلفها، فاستدارت إليزابيث باسمة، ظناً منها أنه جاي. لكن القادم لم يكن جاي... بل ليزا.

مضت لحظة لم تعرف فيها أيهما كان أكثر دهشة، هي أم تلك المرأة الواقفة عند العتبة. بادرت إليزابيث في الحديث، فقالت ببرودة: «مرحباً، ليزا».

ـ مرحباً.

ولم تبتسم المرأة لإليزابيث. كانت رائعة الجمال كالعادة، بشعرها الأشقر الطويل الذي ردّته إلى الخلف في «شينيون» كلاسيكي، كاشفة عن وجه رائع الاستدارة وعينين عسليتين واسعتين.

تقدمت إلى المكتب ووضعت عليه ملفاً. كانت ترتدي تنورة رمادية مقلمة وبلوزة بيضاء قصيرة الكمين مكشوفة الصدر بشكل مثير.

قالت: «لم يخبرني جاي بأنك قادمة إلى المكتب الليلة».

فأجابتها ببرودة: «وهل من المفترض أن يخبرك؟».

فابتسمت ليزا ثم غيرت الموضوع: «ما رأيك بالحوض؟ عظيم، أليس كذلك؟».

ـ نعم، لقد عمل جاي بجد بالغ!

ـ نعم، لقد تعب كثيراً... المسكين، اقترحت عليه أن يذهب ليراك في لندن. فلا يمكن القيام بشيء بالفاكس أو الاتصالات التليفونية.

سألتها ليزا فجأة: «كيف رأيت الحياة في لندن؟ أخبرني جاي أن أمورك ناجحة جداً».

ـ نعم، هذا صحيح.

ماذا أخبرها جاي أيضاً؟ آلمها حقاً أن يتحدث جاي عنها مع هذه المرأة.

ـ لكن العودة إلى البيت، إلى «كوخ قصب السكر» شيء سار. فهو مكان جميل جداً. لقد تعشينا، أنا وجاي الليلة الماضية خارجاً في الفناء، فشعرت أنني لم ابتعد عنه قط!

لم تتعود إليزابيث يوماً أن تحرج أحداً بكلامها، لكن كان عليها الاعتراف بأن انتصارها على ليزا أمرٌ مسلٍ. فلتدعها تتساءل عما يجري، ولتؤرقها الغيرة البغيضة طوال الليل!.. فهذا ما تستحقه!

ـ حسناً، أنا مسرورة!

قالت ليزا ذلك رغم أن كل شيء بدا عليها إلا السرور.

تابعت تقول: «لقد انتظر جاي طويلاً لكي ينظم أمور العمل.. ما أجمل أن تكونا، أنتما الإثنين، متفقين على الأمور».

فقالت إليزابيث تطمئنها: «آه! بل نحن أكثر من متفقين».

فابتسمت ليزا: «حسناً! جميل أن أتحدث إليك، يا إليزابيث، وآمل أن أراك مرة أخرى قبل رحيلك!».

وغادرت الغرفة فتملك إليزابيث الغيظ لأن ليزا استطاعت أن تحصل على الكلمة الأخيرة.

أخذت تتساءل عن حالة العلاقة حالياً بين جاي وليزا؟ ولماذا أحضر جاي سكرتيرة جديدة؟ إنه، طبعاً، ليس بحاجة إلى سكرتيرتين خاصتين!

بعد ذلك بدقائق، دخل جاي بسرعة: «هل أحضرت ليزا الحسابات؟».

لمعت عيناه عندما وقعتا على الملف: «آه، أرى أنها أحضرتها! هذا عظيم! إنها لأجلك لكي تراجعيها».

سألته بجفاء: «لماذا تتخذ سكرتيرتين هذه الأيام؟ ألم تكن واحدة تكفيك؟».

فقال وهو يقلب أوراق الملف: «ليزا تعمل في مكتب المحاسبة الآن، في الناحية الأخرى من الحوض».

ـ ولماذا نقلتها إلى قسم المحاسبة؟

وانتظرت منه أن يخبرها بأنهما يخرجان معاً أو شيئاً من هذا القبيل. وفي هذه الحالة، من الأفضل أن يعملا متفرقين، وإلا لن يتفق مركزه كرئيسها في العمل مع دوره كعشيق لها.

أجاب بعدم اكتراث: «رأيت أن مكانها المناسب هناك».

وناولها الملف.

ـ أتريدين أن تجلسي هنا لتراجعيه، أم تفضلين أخذه معك إلى البيت لتقرئيه هناك؟

ـ بل سأبقى هنا.

وسحبت كرسياً من خلف مكتبه وحاولت التركيز على العمل.

ثم قالت: «هل لديكم دفتر للطلبات أم تحفظون كل هذا في الكمبيوتر؟؟».

ـ نعم، في الكمبيوتر، لكنني أسجل أيضاً في الدفتر كل شيء... تحسباً لأي عطل في الكمبيوتر.

وفتح درجاً، فناولها إياه بابتسامة عريضة: «بعض العادات لا تموت بسهولة رغم كل التقنيات الحديثة!».

فابتسمت ببرودة ثم أخذت الدفتر، فلم تكن تشعر بالتجاوب معه، بل كلّ ما كانت ترغب فيه هو أن يذهب إلى الجحيم.

لم يمنح عشيقته ترقية فحسب، بل يتظاهر بإبعاد مكان عملها عنه، وهذا ما يشعرها بالغثيان.

أخذت تنظر إلى قوائم الأرقام، فسألها: «أتريدين فنجان قهوة آخر؟».

ـ نعم وشكراً! عليّ مراجعة الكثير من الأشياء، متى هو موعد اجتماعنا بمدير البنك؟

ـ عند الساعة الثالثة. ولكن عليّ الاتصال به لتغيير هذا الموعد!

ـ لماذا؟

ـ لأننا رتبنا أمرنا على أن نجتمع في نادي الغولف، لنتحدث بشؤون العمل أثناء جولة لعب. عندما قمت بترتيب ذلك لم أدرك أنك ستكونين هنا، ولكن لا مشكلة، سنغيّر الموعد!

ـ لا تهتم لهذا، فأنا سأقوم بجولة معك.

قال ضاحكاً: «هذا أفضل عرض تلقيته منذ زمن».

ـ أنت تعرف ما أعنيه يا جاي! أعني جولة في لعبة الغولف.

نظرت إليه بعينين مصممتين نافذتين، فهز كتفيه وما زال الهزل واضحاً في عينيه: «هذا مؤسف».

وعادت تنظر إلى الأرقام أمامها. تباً له! كيف يحاول أن يغازلها وهو يقيم علاقة أخرى مع سكرتيرته؟

قال وهو يجثم على جانب المكتب: «لم أكن أدري أنك تحسنين لعب الغولف!».

- تعلمت هذا في لندن. وجدت أن أكثر رجال المكتب يقومون بالعمل بتلك الطريقة... وهكذا قررت الالتحاق بالنادي.

- أحسنت!

وقطبت جبينها متسائلة عمّا إذا كان يسخر منها. تابع يقول: «أظن أن علينا إرجاء الغولف إلى وقت آخر، فلا أريد أن تكوني في الملعب مدة طويلة في حرارة الشمس!».

- ويمعنى آخر، أنت تظنني غير قادرة على اللعب جيداً وبهذا أؤخر العمل.

- لا، طبعاً لا أقصد هذا!

فنظرت إلى وجهه الوسيم غير مصدقة: «بل تقصده، إعترف بذلك!».

- لا، أبداً. كنت أفكر فيك فقط. فالحرارة حارقة حتى الساعة الثالثة، وأنت لم تتأقلمي مع الجوّ بعد، وما زلت متعبة قليلاً من الرحلة.

فقالت بتهكم: «يا لك من حساس، يا جاي! لكنني لست متعبة، وأتحمّل حرارة الجوّ».

- لا بأس. علينا أن نشتري في طريقنا إلى النادي، بعض المراهم المضادة لحروق الشمس وقبعة من القش.

- فكرة جيدة!

- هل يمكنني الاتصال بمكتبي؟

- كما تشائين.

* * *

دفعت إليزابيث الكرة بضربة حازمة، فأخذوا يراقبونها حتى توقفت على بعد عدة أقدام.

تمتم جاي بصوت خافت: «المفروض أن تلعبي الغولف مع مدير

البنك يا إليزابيث، لا أن تذبحيه».

حملقت فيه ببراءة ساخرة: «آسفة! هل تعني أن عليّ أن أدع الرجل ينتصر لئلا يرفض إعطاءنا القرض».

فضحك وقال بجفاء: «شيء من هذا القبيل».

وصل إليهما جورج بريور قائلاً: «ضربة موفقة، يا إليزابيث. أنت لاعبة بارعة جداً».

- شكراً يا جورج.

أخذا ينظران إلى جاي وهو يوازن وقفته ليقوم بضربته، ثم سألها جورج بعدم اكتراث: «إليزابيث، هل راجعت فكرك بالنسبة إلى بيع حصتك في العمل لجاي؟».

أجابت بحزم: «في الحقيقة لم أفعل. لقد أنشأ أبي هذا العمل، وهذا يجعلني مرتبطة به بقوة. لكنني سعيدة بجعل جاي يأخذ مقعد القيادة. فقد طوّره بشكل رائع. وأظن أن العمل سيزداد قوة الآن».

- نعم، إنه مزدهر جداً بكل تأكيد حالياً. ولكن ألا تظنين أن الشريك البعيد يعيق تطوّر الشركة؟

- لا، أبداً! في عهد التقنية الحديثة هذه، ليس على المرء إلا أن يضغط زراً. أنا وجاي على اتصال مستمر ومنتظم بالفاكس. ونحن نعمل بانسجام تام، وأظنه ترتيباً ناجحاً تماماً.

ضرب جاي الكرة بشيء من عدم الاتزان، فجاءت بعيدة عن المكان المفروض أن تستقر فيه.

فقال جورج ضاحكاً: «يبدو أنك ستهزمنا، نحن الاثنين، الآن».

- وقد حصل هذا، أليس كذلك؟

وضحكت إليزابيث عندما استدار جاي ينظر إليها.

كانت الشمس تتوهج في قبة السماء الزرقاء الصافية وسرّت إليزابيث عندما اقتربت اللعبة من نهايتها. ورغم أنها كانت في المرتبة الأولى، فقد وجدتها معركة مرهقة، لأن مدير البنك أرهقها بالأسئلة المستمرة التي

ألقاها عليها عن العمل، وحرارة الجوّ، ما جعلها تعتبره يوماً شاقاً حقاً.

ضربت الكرة، فانسابت بهدوء ونعومة إلى الحفرة.

ـ أحسنت!

وضحك جورج وهو يتقدم للّعب، وعندما جاء جاي ليقف بقربها، تمتمت تقول له: «حظك سيء!».

قال ضاحكاً: «كنت مشتت الذهن!».

وأخذت نظراته تحوم على قوامها المتناسب في الشورت الأبيض. مضت لحظة ظنت فيها أنه يغازلها، لكنه ما لبث أن ضحك.

ـ كنت أستمع إليك تنطقين بجمل من الكلام الفارغ. وبإمكان هذا أن يصرف ذهن أي شخص عن اللعب.

هزت رأسها وقد برقت عيناها بالهزل وقالت بمرح: «يجب أن تكون روحك رياضية، يا جاي».

ضحك دون انزعاج: «لكنك كنت تتفوهين بكثير من الهراء. ذكرتني الآن. متى أرسلت لي الفاكس آخر مرة؟».

فهزت كتفيها وابتسامة صغيرة على شفتيها الناعمتين: «أنت أخبرتني بأن أجعل لديه انطباعاً بأننا متحدان، وأننا كشريكين، ناجحان تماماً، كما قلت لي إنني إذا لم أترك عنده هذا الانطباع، فقد لا نحصل على القرض. كنت فقط أفعل ما طلبته مني».

ـ ولكنني سأصاب بصدمة قلبية إذا ما حصل هذا فعلاً!

فقالت ساخرة: «لم أظن أنك تملك قلباً».

ـ لم تظني؟ ربما أمكنني إثبات ذلك لك في ما بعد.

الحنان في صوته، ولهجته، والطريقة التي نظر فيها اليها، كل ذلك برّد الدعابة من حديثهما، فحوّلت نظراتها بعيداً شاعرة بالاضطراب فجأة.

أتراه تعوّد مغازلة النساء إلى حد جعله يقوم بذلك بشكل آليّ؟

وسأل عندما انضم جورج إليهما: «هل ننتقل إلى داخل النادي ونتناول شراباً؟».

ـ كان هذا سيسرني، ولكن عليّ أن أعود إلى البنك لإنجاز بعض الأعمال، قبل أن أذهب إلى البيت.

فأومأ جاي: «لا بأس، سنراك يوم الثلاثاء إذن يا جورج! يمكننا، حينذاك، أن نتحدث في الأمور بمزيد من التفصيل».

ـ نعم، وأثناء ذلك سأدرس طلبك مرة أخرى، وأناقشه مع مدير المنطقة. كنا، كما تعلم، قلقين بشأن غياب إليزابيث. لكن توضحت الكثير من الأمور.

عندما عاد إلى مبنى النادي، وضع جاي ذراعه حول خصرها.. كانت مجرد حركة عادية دون حماسة، لكنها أحدثت تأثيراً عميقاً في إليزابيث. في الواقع، كانت أقل لمسة منه كافية لتجعلها ترتجف.

لولا وجود جورج لابتعدت عنه، فهي لم تشأ أن تحدث ثورة غضب أمام الرجل.

صافحهما الرجل أمام الباب، وهو يقول لإليزابيث بلطف: «ما أجمل أن أتعرف إليك أخيراً، يا إليزابيث! وأنا أتطلّع إلى رؤيتك صباح الخميس».

وعندما استدار متجهاً نحو سيارته، أنزل جاي ذراعه عن خصرها.

ـ كان حريصاً على إقناعي بأن أبيعك حصتي.. لقد قلت له ثلاث مرات إنني لا أريد ذلك!

ـ سبق أن أخبرتك أن البنك يريد تسهيل الأمور، وربما يريد أن يختبر مقدار التزامك.

ـ التزامي بالعمل قوي جداً، وما كان بإمكاني الإيضاح أكثر مما فعلت.

ـ أحقاً؟ أظن أن البنك ينظر إلى الأمر بشكل أكثر دقة. فالتزاماتك نحوي قد تحطمت، ومن هنا ثمة علامة استفهام بالنسبة إلى دورك في مستقبل العمل.

ـ ما زلت تظنني سأبيعك، إليس كذلك؟

فقال بلطف: «نعم، أعتقد أن هذا أفضل، فأنا متلهف إلى متابعة توسيع الأعمال».

وأشاح بوجهه عنها وقال: «هيا بنا! سأقدم إليك شراباً».

أخذت تتساءل، وهي تجلس في ردهة النادي الأنيقة، عما إذا كان الأفضل أن تبيعه حصتها وعما كان أبوها سيفعل لو كان هنا الآن؟

كان الظلام في الخارج يرخي سدوله. جلست إليزابيث ترشف كأساً من المياه الغازية وترقب غروب الشمس خلف حدائق النادي الجميلة.

كان جاي على صواب في أنها لم تتأقلم بعد مع الحرارة، فقد آذتها الحرارة عصر هذا اليوم في ملعب الغولف، وشعرت بأنها أنهكتها، وأحدثت عندها نوعاً من الغثيان. كان هذا غريباً لأن الحرارة لم تزعجها قط أثناء سكنها هنا.

وسألها بعفوية وهو يرشف شرابه: «ما رأيك بجورج؟».

ـ أظنه شاباً طريفاً تماماً، لكنه أصغر من أن يكون مدير بنك.

فضحك: «هذا صحيح! نحن نفكر بالطريقة نفسها. لقد شعرت بالضبط بنفس الشيء عندما رأيته لأول مرة».

أن يفكرا بالطريقة نفسها هو ما لن يحدث أبداً! وجعلتها هذه الفكرة حزينة كثيراً. وتمالكت نفسها بعنف، فتذكرت حياتها في لندن. عليها أن تعود إليها، إنها حياة عشقتها، ويوماً ما ستتعرف إلى شخص آخر... شخص يحبها حقاً. رنت هذه الكلمات جوفاء في ذهنها. لم ترد أن تتعرف إلى شخص آخر. ونظرت إلى جاي، إنها تريده هو، ما زالت تحبه.

صعقها إدراكها لهذا، وشعرت وكأن ضربة عنيفة أصابتها.

ـ هل تريدين البقاء وتناول العشاء هنا؟ يمكنني أن أتصل بماي وأخبرها بأن تأخذ هذا المساء عطلة لها.

ـ لا... أريد أن أعود، إذا لم يكن لديك مانع، فأستحم وأغيّر ملابسي. أريد أيضاً أن أستعلم عن فندق.

ـ ظننتك قررت البقاء في البيت مدة أطول!

ـ لا، لا أستطيع.

وحوّلت عينيها عنه.

ـ ولمَ لا؟

ـ لأن... لأن الأمر يبدو غريباً.

ـ حقاً؟ أم لأن حبيبك اعترض على سكننا معاً؟

ـ لا أحد اعترض على شيء.

قالت هذا بسرعة. وبالرغم من إنكارها العنيف، لم يصدقها جاي. هذا المساء، عندما جلسا يتناولان الفطور معاً، كاد يقسم على أنهما منسجمان. لقد بدت سعيدة مسترخية. لكنها منذ ذهبت إلى المكتب واتصلت بلندن، تغيّر مزاجها.

تلك النظرة الحذرة العدائية عادت إلى عينيها. لقد ذكره هذا بآخر أسابيع زواجهما، عندما انطوت تماماً على نفسها.. حينذاك لم يستطع أن ينفذ إلى أعماقها. لا بالهزل، ولا بالإغاظة المازحة... ولا بالعواطف.

وبعد رحيلها، كان أحياناً يتساءل عما إذا كان عليه عدم السماح لها بالرحيل، وعما إذا كان عليه أن يشدّد عليها في البقاء.

ولكن يبدو أنها لم تكن تفكر بتعقل حين اقترحت عليه الزواج. فقد كان الحزن لموت أبيها قد أنهكها. وهكذا، كان منطقياً أن تراجع نفسها مع الوقت، وتكتشف أنها اقترفت غلطة.

وهكذا تركها ترحل... راجياً في أعماقه، أن تعود إليه بعد التفكير. صبر عليها شهرين، وعندما نفد صبره لحق بها إلى لندن، موهماً نفسه بأنها رحلة عمل لكي يقوم بالإجراءات الأخيرة المتعلقة بتصميم يخت إنكليزي، وأثناء وجوده سيمرّ بها بشكل عفوي.

عندما وصل إلى الطريق المؤدية إلى بيتها كانت خارجة منه. أخذ ينظر إليها من بعيد فرآها تسير نحو سيارة مع مجموعة أصدقاء. وكانت تضحك وتمزح ما جعله يشعر بلوعة الفراق.

لقد استدار حينذاك وذهب، محدثاً نفسه أنها، على الأقل، سعيدة،

وهذا كل ما كان يقلقه. وإذا كانت تريده، فهي تعرف مكانه. ثم حاول أن ينساها... ولكنه وجد ذلك مستحيلاً!

أخذ ينظر إليها الآن، وأراد أن يمسك بها ويهزها. إما هذا وإما أن يأخذها بين ذراعيه ويقبلها بدون وعي.. كان يعلم أنها تكن له بعض المشاعر، يا لجهنم! إنها محمومة العواطف معه... بالغة الحرارة والتجاوب.

لكن ذلك لا يعني الحب الحقيقي بالضرورة، وربما ذلك الرجل في لندن استطاع الوصول إلى قلبها، أو ربما إليزابيث بحاجة إلى أن تكون وحدها دون ارتباط أوالتزام بشيء.

ـ هل نذهب؟

وابتسمت له ببرودة، فأنهى شرابه قائلاً: «بكل تأكيد! لك ما تشائين!».

فنظرت إليه بعينين ضيقتين: «لا أظنك تضايقت حقاً لأنني هزمتك في الغولف؟».

فابتسم: «لا. طبعاً لا».

ـ لكنك لم تكن تظنني قادرة على اللعب؟

ـ آه، يا إليزابيث! لم أشكّ لحظة في قدرتك على اللعب، فالرجل الذي يستخفّ بك يكون أحمق!

قطبت جبينها، متسائلة عما إذا كانت تتخيل توتراً في صوته وقالت: «ألم تكن تفكر في الغولف الآن؟».

فهز رأسه باسماً، فيما تابعت تقول: «بماذا كنت تفكر...؟ في العمل؟ في شراء حصتي؟».

ـ إذا كان لا بد أن تعلمي، كنت أفكر في ما إذا كنت بحاجة إلى ذلك الرجل الذي كنت تخرجين معه في لندن؟

أجفلت لهذا السؤال.

ـ أحتاج إليه...؟

وشعرت بالضيق وموجة حرارة تكتسحها: «بأي شكل؟».

التوت شفتا جاي بابتسامة ساخرة: «لا تسيئي فهمي! كنت أتساءل فقط عما إذا كنت تحبين ذلك الشخص! إذا كان شخصاً تتمنينه بقربك دائماً، شخصاً تجلسين بقربه وتشاهدان شاشة التليفزيون، شخصاً يفرك لك ظهرك في الحمام...».

فقاطعته محذرة: «قلت إنك لم تكن تتحدث عن العواطف».

ـ لا بأس! هل هو شخص مستعد للقيام بأي شيء، من أجلك؟ هل هو شخص تفتقدينه حين لا يكون بجانبك؟

ـ مستعد للقيام بأي شيء من أجلي؟

فقال متخلياً عن كل حذر: «حسناً، دعيني أطرح هذا بشكل مختلف. هل تأملين أن يترك زوجته ويتزوجك، جاعلاً منك امرأة شريفة؟».

حاولت أن تحوّل نظراتها عنه، لكن عينيه كانتا تتفحصان عينيها وقد امتلأتا بتحدٍّ صامت.

وشعرت بالاضطراب وقالت بحزم: «لكنني امرأة شريفة فعلاً».

فهز رأسه: «هذا غير مهم. هيا بنا نذهب».

لم تناقشه. لم تشأ أن تدخل عالم حبيبها الخرافي ذلك في لندن، ولكنها أخذت تتساءل عما جعله يلقي عليها هذا السؤال.

* * *

٩ ـ الأمل اليائس

لم ينبسا بكلمة وهما في طريقهما إلى البيت. بدا وكأن جاي مستاء منها لسبب ما. هل كان يرغب في أن تقول إنها مغرمة بصديقها المزعوم ذاك؟

تذكرت قبل أن يتوفى والدها، حين كان بإمكانها أن تتحدث مع جاي بصراحة وسهولة.. كانا أحياناً يتناولان شراباً معاً بعد إغلاق الحوض يوم السبت، وكان يسألها بعفوية عما إذا كان لديها موعد ذلك المساء. أحياناً كان يكون لديها موعد.. وأحياناً لا. لم تكذب عليه قط، كانت دوماً تخبره بالحقيقة. أترى جاي يأمل في العودة إلى أيام الصداقة تلك؟ هل كان يريد أن تتحدث عن علاقتها وكأنهما رفيقان؟ وعضت شفتها، كان ذلك دوراً مثّلته مرة، ولكن ليس بإمكانها أن تقوم به مرة أخرى، خصوصاً بعد أن اجتازا الحدود إلى علاقة أكثر حميمية.

العودة إلى الوراء غير ممكنة. من غير الممكن أن تصبح صديقة عادية له وهي تتذكر بكل وضوح ما هو أن تكون معشوقة.

نظرت إليه، وعادت تحدث نفسها بحزم بأنها لا تحبه، وإنما عقلها يخادعها.

قالت محاولة تغيير الموضوع: «ستعود شيريل من فلوريدا غداً مساء».

ـ العرس يوم السبت، أليس كذلك؟

فأومأت: «نعم.. السبت».

ـ هل نذهب معاً إلى المطار لنحضرها هي ورفيقها؟

ـ سيكون هذا حسناً.

ـ أين سيقيمان؟ هل تعلمين؟

سكتت لحظة ثم قالت: «في الفندق الذي تزوجنا فيه».

ـ حقاً؟

ـ قالت إنها تراه مكاناً شاعرياً جداً لحفلة زفاف.

ـ حسناً، أظنه كذلك.

ساد الصمت بينهما مرة أخرى، وتمنت إليزابيث لو أن شيريل اختارت مكاناً آخر لإجراء الزفاف، فالعودة إلى هناك هو شيء لا تريده. سيكون أشبه بمواجهة الماضي.. العودة إلى زيارة مسرح الجريمة.

عندما وقفت بهما السيارة أمام منزل جاي، انفتح الباب وخرجت ماي منه مسرعة تستقبلهما على الطريق، قائلة بقلق: «جاي، عليّ أن أذهب إلى بيت ابني! لقد سقطت كنتي عن درجات السلم فأخذها جاك إلى المستشفى، لكنهما بحاجة إلى من يرعى الطفل بول».

فقال جاي على الفور: «سآخذك إلى هناك».

ـ لا، يمكنني أن أذهب بسيارتي بنفسي، لكنني كنت قد بدأت بإعداد العشاء، ولم أشأ أن أذهب دون أن أوضح...

ـ آه، بحق الله يا ماي! لا تهتمي بالعشاء!

ووضعت إليزابيث يدها على ذراعها ملاطفة: «اذهبي إلى أسرتك، هل أنت واثقة من أنك بحالة تمكنك من قيادة سيارتك؟ هل تريدين أن آتي معك؟».

ـ لا، أنا بخير! شكراً يا إليزابيث!

وأسرعت المرأة إلى سيارتها وهي تصيح: «سأتصل بكما في ما بعد».

وعندما دخلا المنزل، تمتمت إليزابيث تقول: «ما أفظع هذا! أرجو أن ينتهي أمر كنتها والجنين على سلامة».

- حسناً، أرجو ذلك.

قال هذا والقلق في عينيه. كانت رائحة طعام شهية تنبعث من المطبخ.

فتحت إليزابيث باب الفرن لترى ما بداخله: «ضلع محشي بالتفاح والأعشاب، هل أضع بعض البطاطا والخضر معه؟».

- لا، إلا إذا كنت جائعة، صحن سلطة بجانبه يكفيني.

- نعم، وأنا كذلك.

وفتحت الثلاجة لترى ما فيها!

- رؤيتي لك هنا تذكرني بالأيام الماضية!

- كما أذكر، لم أكن أطبخ كثيراً!

- قليلاً ما كنت تطبخين. هل تذكرين يوم أحرقت «البفتيك»؟

شعرت بجسدها تحرقه الذكرى.

- لا، لا أتذكر ذلك!

لقد كذبت لأنها تتذكره جيداً، كان قد مضى على زواجهما أربعة أشهر فقط، وكان ذلك أول جدال حقيقي يحصل بينهما.

كان جدالاً أحمق. . تافهاً. . وهي لا تتذكر سببه حتى. وفي الحقيقة، كانت تتساءل عما إذا كان جاي يغيظها عمداً، لكي يرى ردة فعلها. وقد نجح في ذلك تماماً، فقد كانت تهدأ لحظة، لتثور في اللحظة التالية وتحاول أن تقذفه بشيء ما. وكانت التحفة الخزفية في الردهة قريبة من يدها بشكل مُغرٍ.

فقال ساخراً عندما تكهن بأفكارها: «ستأسفين إذا فعلت ذلك».

فقالت وقد حملت التحفة: «أحقاً، وكيف؟».

- ستكونين آسفة جداً. إنها إرث عائلي متوارث.

لم تكن تظن أنها ستقذفه بها حقاً، ولكن تملكها الإغراء للقيام بذلك، فقالت: «حسناً، عليك أن تعتذر!».

- لماذا أعتذر؟

- لأنك كنت رجلاً متغطرساً، مزعجاً تثير الغضب.

حينذاك، أخذ التحفة من يدها قائلاً: «لقد دفعتك إلى الجنون، أليس كذلك؟».

كان صوته عاطفياً. . جعلت لهجته حرارتها تتصاعد.

- تماماً!

عند ذلك أخذها إليه وقبلها، ونسيا الجدال ونسيا العشاء. وبعد ذلك بساعات، كانا مستلقيين على الأريكة متعانقين، فشما رائحة حريق. وإذا «بالبفتيك» قد أصبح فحماً.

وعاد جاي يسألها: «هل أنت متأكدة من أنك لا تتذكرين؟».

- أخبرتك يا جاي أنني لا أتذكر.

وحملقت فيه محذرة.

- بل تتذكرين! وأظنك خائفة فقط من الاعتراف بذلك!

- كلام فارغ!

ثم نظرت إلى ساعتها، وقالت: «بما أن العشاء سيأخذ بعض الوقت، فسأذهب وآخذ «دوش»».

واتجهت إلى الممر لتخرج، وظنت لحظة أنه سيعيقها عن ذلك، إذ وضع يده على ذراعها. . أخذ قلبها يخفق بعنف انتظاراً، لكنه تراجع إلى الخلف سامحاً لها بالمرور، ورفعت نظرها إليه بحذر.

- عليّ إنجاز بعض الأعمال! أنا في المكتب إذا احتجت إليّ.

فشعرت بخيبة أمل، وكان هذا جنوناً منها، فقد أرادت أن تخرج جاي هاموند من حياتها، وتوقف هذا الانجذاب الغريب الذي تشعر به نحوه. وإلا عادت إلى ما كانت عليه حين تركته أول مرة. . تعسة.

اغتسلت وارتدت معطفاً منزلياً ثم وقفت عند النافذة، تنظر إلى الحديقة التي كانت غارقة بالضوء المتدفق من المنزل. ولكن خلف ذلك، بدا الشاطىء موحشاً.

غيرت ملابسها إلى ثوب وردي، وهبطت إلى الطابق الأسفل. كان

مكتب جاي مغلقاً، لكنها رأت الضوء من تحت الباب. أرادت أن تقرع الباب وتدخل.. أن تخبره أنها تتذكر فعلاً ذلك الجدل والعشاء المحروق.

هزت رأسها، غاضبة من نفسها ثم اندفعت خارجة، وبما يساعدها التمشي قليلاً على الشاطىء على فهم الأمور بأبعادها الصحيحة.

كان القمر بدراً ينعكس ضوؤه على صفحة البحر السوداء المخملية، والنسيم يهمس بين أشجار جوز الهند. خلعت حذاءها ثم سارت على حافة المياه التي كانت تبلل أصابع قدميها.

ـ ما كان لك أن تنزلي إلى هنا وحدك في ظلام الليل!

وأجفلت لهذا الصوت الذي جاءها من خلفها.

ـ ظننتك تعمل!

وأخذت تنظر إليه يتقدم نحوها.. كان وجهه في الظل، وقد أحال ضوء القمر قمة شعره إلى لون الفضة. وصل إليها ووقف بجانبها ينظر إلى البحر.

ـ سمعتك وأنت تخرجين. المكان هنا رائع، أليس كذلك؟

ـ نعم.

فسألها بلهجة رقيقة: «أتتذكرين الليلة التي قضيناها معاً هنا، أم أنك نسيت هذا أيضاً؟».

لم تجب، لم تستطع أن تكذب بهذا الشأن، وشعرت بصدرها يضيق، ثم توقف خفقان قلبها عندما مد يده يمسك بيدها، ثم يضغطها بلطف.

ـ أفكر فيك دوماً عندما أنزل إلى هنا، وأتذكر ليلة عرسنا.

فهمست متوترة: «كفى يا جاي..!».

ـ كفى ماذا؟ لا تريدين أن أتذكر؟

وهز رأسه، ثم التفت إليها قائلاً: «ألا تفكرين أبداً في تلك الأشهر القليلة التي أمضيناها زوجاً وزوجة؟».

لهجته العاطفية أوقفت خفقات قلبها، فسحبت يدها من يده.

ـ من الأفضل.. الأفضل أن أعود إلى البيت.

مدّ يده يرفع وجهها لينظر إليه. بدت تحت ضوء القمر بالغة الشحوب، وبدت عيناها الزرقاوان متألقتين وكأنهما تملآن وجهها، وانتقلت نظراته إلى شفتيها.

مدّ أصابعه يلامسهما بخفة. وجعلتها هذه الملامسة الرقيقة تشعر بالألم في داخلها.

قال بحنان: «أنا أتذكرها. كنا سعيدين في البداية، أليس كذلك؟».

شعرت بعينيها تغرورقان بالدموع: «نعم، كنا كذلك!».

وتمنت لو يمكنها رؤيته جيداً، لو تنظر في عينيه، لكن الدموع جعلتها تراه غائماً لحظة. ثم أحنى رأسه يعانقها.

ثم قال بصوت أبح: «كنت أراه ترتيباً حسناً للغاية بيننا. كان، في الواقع قريباً من الكمال».

وعانقها مرة أخرى، عانقها بحنان ورقة فائقتين.

أرغمت نفسها على الابتعاد عنه قبل أن يخرج الأمر عن السيطرة، كان قلبها يخفق بعنف فخشيت أن ينفجر.

ـ ولكن زواجنا كان كذلك، يا جاي.. ترتيباً مناسباً..

ـ هذا صحيح، ولكنه كان سعيداً. كنا صديقين.. نهتم ببعضنا البعض..

ـ لكن هذا غير كافٍ ليدعم الزواج!

قالت هذا وهي تفكر في ليزا، وكيف كان يعانق ليزا تلك الليلة عندما كانا وحدهما في المكتب.

سألها فجأة: «هل أحببت أحداً في حياتك، يا إليزابيث؟ أعني ذلك الحب العميق المدمّر؟».

ـ أنا في الثلاثين من عمري، يا جاي. وطبعاً أحببت! كنت، في الواقع، على وشك الزواج عندما كنت في بداية العشرينات.

ـ هل كان ذاك حب حياتك الأكبر؟

جعلها هذا السؤال الهادىء تقطب جبينها. منذ مدة طويلة، لم تعد تفكر في دانيال.

ـ لا، ظننت ذلك حينذاك. . لكنني كنت مخطئة.

قالت جملتها الأخيرة هذه بضعف.

ـ ماذا حدث بينكما؟

ـ اكتشفت أنه كان يحب فتاة أخرى معي. وعندما واجهته بالأمر اعترف بذلك، قال إنه يحب المرأة الأخرى أكثر، ثم تركني.

ـ لم تخبريني عن هذا قط من قبل.

فابتسمت: «إنه شيء لا أحب أن أتذكره. لقد آلمني جداً حينذاك. . ولكن المرء يتغلب على هذه الأشياء، أليس كذلك؟».

ـ أحياناً!

فنظرت إليه بحدة: «لقد تغلبت على حزنك على زوجتك السابقة، أليس كذلك؟».

ـ يا رباه! طبعاً تغلبت. ولكن هذا استغرق وقتاً.

ـ ونساءً كثيرات.

ولمعت عيناها بهزل ساخر. فقال بلطف: «امرأة واحدة، امرأة معينة».

ـ آه، لا تبالغ يا جاي!

وابتعدت عنه خطوة.

ـ لا تحاول أن تخبرني أنني ساعدت في شفاء قلبك المحطم. لا بد أنك تظنني ساذجة تماماً. هل تحاول أن تسحرني لكي أبيعك حصتي في العمل؟

فابتسم: «لا، بل أحاول أن أخبرك بأن. . زواجنا. . أو اتفاقيتنا كما تحبين تسميته، قد نجح. لأنني أحب أن أراك بقربي دوماً. .».

أكملت كلامه ساخرة: «كان مناسباً!».

ـ كان أكثر من هذا بقليل. . أليس كذلك؟

أشاحت وجهها، ونظرت إلى البحر.

ـ لقد ناسبك هذا حينذاك فقط كيلا يصبح حبك لليزا أمراً جاداً أكثر مما يجب!

نطقت بهذه الكلمات الساخرة دون تفكير منها.

ـ ليزا؟

لاحظت لهجة تنذر بالشؤم في صوته.

ـ كيف عرفت بقصة ليزا؟

ولمعت عيناها في ضوء القمر: «هل تظنني غبية؟ أم عمياء؟ أم تظنني الاثنين معاً؟».

ـ لا أظنك شيئاً من هذا! لكن ليزا كانت فقط علاقة. .

قاطعته بعنف، بعد أن شعرت فجأة بالخوف من إكمال الحديث: «لا أريد أن أعرف حقاً».

ـ ليزا أصبحت من الماضي، يا إليزابيث.

ـ قلت لك إن هذا لا يهمني!

واستدارت راكضة نحو المنزل.

ـ إليزابيث، عودي!

لاحقها صوته واضحاً في جو الليل. لكنها لم تستجب، كانت تهتز بعنف في داخلها، وكانت بحاجة إلى الابتعاد عنه.

اجتازت المروج راكضة، ثم فركت الرمال عن قدميها بعنف، قبل أن ترتدي حذاءها وتدخل المنزل من باب الباحة.

أدركها جاي وهي تجتاز الردهة.

ـ إليزابيث، لحظة واحدة من فضلك! دعيني أشرح لك. . .

ـ لا أريد أن تشرح شيئاً!

واستدارت تحملق به: «ماذا تريد أن تقول؟ إن ذلك كان مجرد متعة عابرة؟ إنه لم يكن يعني الكثير؟ أم أنها حب حياتك؟ مهما كان ذلك، فهو لا يهمني! لم يعد من شأني الآن».

- هل تغارين؟

سألها هذا وقد هدأ صوته فجأة، وأخذ ينظر إليها متفحصاً.

- ولا مثقال ذرة!

قالت هذا بهدوء، بينما كان مليون صوت في داخلها يصرخ بها، كذابة!

- بل هذا صحيح! أنت غيورة.

واقترب منها وفي عينيه لمعان، وشفتاه تلتويان بابتسامة صغيرة.

- قلت لك يا جاي إن هذا لا يهمني أبداً! كل ما أريده منك هو أن تعلم أنني لن أنخدع، فأبيعك حصتي في الشركة، مهما كنت رقيقاً أو ساحراً.

- والآن، دعينا نتفاهم. أنت لا تريدين البيع بسبب ليزا؟

- لا، فقط لا أريد البيع! انظر إلى فمي وأنا أقول هذا كيلا تنسى.

فقال ضاحكاً: «أحاول ألاّ أنظر إلى فمك!».

- يا لك من رجل صعب!

وأشاحت بوجهها عنه، لكنه وضع يده على كتفها وعاد يديرها لتواجهه.

- كانت ليزا متعة عابرة. وقد انتهى ذلك منذ وقت طويل!

أخذت تحدق إليه. حاولت طويلاً أن تدفن الحقيقة في داخلها، أن تمحوها. لكن الحديث عنها الآن زاد من آلامها.

- حسناً، لم يعد هذا مهماً الآن على كل حال!

- ما دام غير مهم فلماذا تحدثت عنه إذن؟

- لتعلم فقط أنك لن تستطيع أن تخدعني يا جاي، ولتعلم أن ذهني صافٍ تماماً بالنسبة إلى الأعمال.

قال برقة بالغة: «أنا لا أحاول أن أخدعك».

- حقاً؟

وهزت رأسها. لم تكن تعرف إن كان عليها أن تصدق ذلك.

- لا فائدة من الحديث عن هذا الـ. .

- بل هناك فائدة طبعاً، نريد أن نصفي الأمور يا إليزابيث.

- سنتحدث عند الصباح، أنا متعبة!

- بل سنتحدث الآن! كيف عرفت بأمر ليزا؟

- عرفته فقط. وأنا لست غيورة! معنى أن أغار هو أنني أهتم ولو مثقال ذرة. وهذا غير صحيح، يمكنك أن تصاحب من تريد ياجاي!

- وهذا لا يهمك مثقال ذرة؟

- لا، أبداً!

- إذن، سأضيع وقتي إذا طلبت منك العودة إليّ؟

- العودة إليك؟

تلاشت النار من صوتها، وأخذت تحدق إليه بحيرة، فهمس: «نعم، أن تعودي إلى بيتك، أن تمنحي (اتفاقيتنا) فرصة أخرى».

وقطع السكون الذي سادالمنزل رنين جرس الباب. فنظر في ساعته: «من يمكن أن يكون الطارق؟ أياً كان، يمكنه أن يعود من حيث أتى ويعود في الصباح!».

لكن الجرس عاد يرن مرة أخرى وبإلحاح.

- يجب أن تفتح الباب وترى، ربما ماي نسيت مفتاحها!

هز رأسه، ثم ابتعد عنها قائلاً: «حسناً، ولكن ابقي حيث أنت! أريد أن نتحدث».

أخذت تنظر إليه وهو يغادر الغرفة. كانت مسرورة لهذه المقاطعة، فقد منحتها فرصة تراجع فيها نفسها. قال إن علاقته مع ليزا قد انتهت، وقد ارتاحت لسماعها هذه الكلمات. ولكن ما زال الألم يحز في نفسها كثيراً. وطلبه منها أن تعود إلى بيتها. .

شعرت بالغثيان لدى تفكيرها بهذه الكلمات. وعاد جزء من حديثهما إلى ذهنها. (ليزا كانت متعة عابرة. وقد انتهت منذ وقت طويل). إذا افترضت أنه كان يقول الحقيقة، فهل يهمها أن علاقته انتهت؟ هل غيّر هذا كل شيء؟ الخيانة ما زالت موجودة. وهي لا تدري إن كانت ستصفح

عنه قط. أما كان عليه، على الأقل، أن يقول إنه آسف؟ ألا تستحق منه أن يحترمها؟

ما الذي قاله جاي على الشاطىء؟.. (اتفاقيتنا، كما تحبين أن تسميها قد نجحت تماماً. أحب أن أراك بقربي..). أيريدها أن تعود إليه لتخفف عنه الصدمات التي تعرض لها إثر علاقاته الغرامية؟ كانت هذه الفكرة كريهة مثيرة للاشمئزاز إلى حد جعلت جسدها يتجمد.

فجأة، سمعت من يناديها من الردهة، فقطبت جبينها وذهبت لترى ما يحدث.

سمعت صوت جاي يتحدث إلى امرأة كان صوتها مألوفاً، واندفعت نحو الردهة.

ـ شيريل.. شيريل، أهذا أنت؟

واستدارت المرأة عندما سمعت صوت إليزابيث.

كانت زوجة أبيها شقراء جذابة في بداية الخمسينات من عمرها، ذات قوام ممتلىء لكنها من الأناقة بحيث لم يقلل هذا من جمالها.

وهرعت إليزابيث لتحييها وقلبها يخفق إثارة وحبوراً: «شيريل؟ ظننا أنك ستصلين مساء غد؟».

ففتحت شيريل لها ذراعيها: «تغيير بسيط في الخطة، لا أستطيع أن أخبرك كم أنا مسرورة لرؤيتك».

ـ وأنا أيضاً!

وأغمضت إليزابيث عينيها واحتضنت بشدة هذه المرأة التي كانت جزءاً كبيراً من حياتها، حين كان أبوها حياً، ثم رجعت إلى الخلف.

ـ أين آلان؟

ونظرت حولها، ولكن لم يكن هناك أحد وكانت ثمة حقيبة واحدة فقط مسندة إلى الجدار.

ـ آه، تلك قصة أخرى!

فعادت إليزابيث تنظر إلى زوجة أبيها، لتلاحظ، للمرة الأولى، أن

عينيها كانتا منتفختين قليلاً وأن خلف تلك الابتسامة الواسعة آثار دموع.

ـ هيا بنا! سأضع إبريق الشاي على النار.

وقالت شيريل بسرعة: «إنني أزعجكما، لم أشأ أن أزعجكما. ربما من الأفضل أن أذهب ثم نجتمع غداً...».

ـ لا تكوني حمقاء! أنت لا تزعجيننا أبداً.

ورفعت إليزابيث بصرها، فرأت لمحة غيظ في عيني جاي وهو يضع الحقيبة.

ـ لم أكن واثقة من أنني سأجدكما هنا، كنت ذاهبة إلى الفندق حيث أتصل بكما في الصباح.

كانت شيريل تقول هذا وإليزابيث تسير بها إلى المطبخ.

ـ لا، حضورك إلى هنا هو العمل الصواب!

قالت إليزابيث ذلك وهي تضع الإبريق على النار ثم تستدير لتنظر إلى المرأة. سألتها برقة: «ما الذي حدث؟».

وتملكها الرعب البالغ عندما انفجرت شيريل بالبكاء. فاندفعت إليها إليزابيث تحتضنها. فتمتمت شيريل وهي تشهق: «دار بيني وبين آلان شجار عنيف».

فقالت إليزابيث بلطف: «إنه شجار بسيط يحدث بين العشاق».

ـ لا، إنه أكثر من ذلك! فقد ألغينا الزفاف.

ـ آه، يا شيريل! لماذا؟

هزت المرأة رأسها، وجرت كرسياً جلست عليه عند المائدة.

ـ لأنني أردت إقامة الزفاف هنا. فقال إنني ما زلت أحب أباك.. وإنني أريد أن أعود إلى الماضي.

ودفنت شيريل وجهها بين يديها فترة.

ـ ولكنك لست كذلك، كما أظن؟

ـ لا أدري، عندما قال هذا، شعرت، فجأة بأنني غير واثقة. أبوك توفي منذ سنة ونصف فقط... ربما آلان على حق!

جاء جاي وأخذ ينقل نظراته بينهما ثم قال: «وضعت حقيبة شيريل في الغرفة الاحتياطية آخر الممر».

أومأت إليزابيث وعيناها مليئتان بالشكر. ما كان بإمكانهما أن يدعا شيريل تذهب إلى الفندق، وهي بهذه الحالة.

وقال جاي بهدوء: «أنا مضطر إلى الخروج».

ونظر إلى شيريل: «سأراك في ما بعد».

ـ أنت لبق للغاية، شكراً يا جاي. أنا شاكرة حقاً!

ـ لا مشكلة أبداً!

ونظر إلى إليزابيث: «سنتحدث فيما بعد».

وعندما تركهما بمفردهما، نظرت شيريل إلى إليزابيث متعجبة: «حسناً، على الأقل يبدو أنكما على علاقة طيبة. لقد تكدرت جداً حين أخبرتني بأنكما افترقتما».

فهزت إليزابيث كتفيها، وسألتها شيريل: «هل عدتما إلى بعضكما البعض؟».

فتنهدت إليزابيث: «لا أظن ذلك. إنها قصة طويلة يا شيريل، لكنني أظنك تعلمين أن زواجنا غير مبنيّ على الحب. وإذا لم يكن ذلك موجوداً.. فما من فرصة لإقامة علاقة جيدة، أليس كذلك؟».

ترك جاي محفظة نقوده على مائدة المطبخ، وفيما كان عائداً ليحضرها، سمع كلمات إليزابيث بوضوح من خلال الباب، وهذا ما جعله يقف فجأة.

سألت شيريل فجأة إليزابيث: «هل لديك شوكولا في البيت؟».

ابتسمت إليزابيث وقالت: «لا أدري، ولكن هناك ضلع لحم محشو في الفرن إذا كنت جائعة».

وخارج الباب، ابتعد جاي الذي شعر بالحاجة إلى شيء أقوى من الشوكولا...

***

استلقت إليزابيث في سريرها وأخذت تراقب شروق الشمس من النافذة، تساءلت عن الوقت الذي عاد فيه جاي إلى البيت الليلة الماضية. كانت تعلم أنه منح شيريل مجالاً لتتحدث عن تحطم علاقتها، لكنها كانت تأمل أن يعود بسرعة لكي يتحدث. وعندما ذهبت شيريل للنوم، كان الليل قد انتصف، وجاي غائب.

نهضت إليزابيث وذهبت إلى الحمام لتغتسل. لم تكن تشعر أنها بصحة جيدة، ربما لأنها لم تنم جيداً الليلة الماضية. فقد كانت تستعيد إلى ذهنها كلمات جاي مرة بعد مرة. هل كان جاداً حين اقترح عليها الرجوع؟

ارتدت ثوباً خفيفاً أصفر، ووضعت صبغة على شفتيها لتوفر لوجهها بعض الإشراق، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل لتصنع شراباً.

دهشت وهي تجد شيريل في كامل ملابسها، جالسة في المطبخ، وعندما جلست بجانبها سألتها برقة: «ألم تستطيعي النوم جيداً أنت أيضاً؟».

فهزت شيريل رأسها: «وماذا عساي أفعل يا إليزابيث؟».

ـ هل تحبينه؟

ـ ظننت ذلك!

فتنهدت إليزابيث: «قد تكون هذه حالة توتر الأعصاب قبل الزفاف».

ـ نعم. قد يكون هذا، عليّ أن أعترف بأنني خائفة جداً، وربما هو أيضاً. كنت مستلقية الليلة الماضية أفكر في كل شيء وأنت تعلمين أن السبب الرئيسي الذي جعلني أريد الزواج هنا هو أنت.. يا إليزابيث، أنت قريبتي الوحيدة.

ـ يجب أن تتصلي تليفونياً بالآن وتتحدثي إليه.

ـ هذا ما سأفعله!

وابتسمت لإليزابيث ثم قالت: «ماذا عنك أنت وجاي؟».

ـ والآن، هذا هو السؤال الذي يساوي مئة مليون دولار.

ـ كان عليك أن تسأليه ليخبرك بكل شيء عن ليزا كانينغهام! متى تقابلا، ومتى بدأت العلاقة وانتهت. . !

ـ أعرف هذا. المشكلة هي أن مجرد ذكر اسمها يصيبني بالذعر. . أردت أن أسأله منذ مدة طويلة، لكنني خائفة للغاية. حاولت أن أجد لهجة هادئة منطقية أبدأ بها الحديث. . . ولكن ما إن أفكر في اسمها، حتى تصبح كلمات (هادئة) و(منطقية) تنتمي إلى عالم آخر. ثم أنتهي بقول لا شيء. . . أو، كالليلة الماضية، يتملكني الغضب.

أخذ إبريق الشاي يغلي فوقفت إليزابيث تصنع الشاي.

ـ بالإضافة أخشى أن يتعلق بأخرى حتى لو أنهى علاقته بها.

ـ نعم. . بك أنت.

استدارت إليزابيث تنظر إلى شيريل، وقالت: «أنا مستعدة لإعطاء أي شيء لكي أصدّق هذا».

ـ هل لديك ما تخسرينه إذا تركته ولم تحاولي العودة إليه مرة أخرى؟

كانت إليزابيث تسكب الشاي لهما، وفجأة أصبحت يدها غير ثابتة، فهي لم تخبر زوجة أبيها عن الشك الذي يساورها حول الحمل منه. تصورت طفلاً يدرج يشبه أباه بشعره الأسود وعينيه القاتمتين، ستدعوه «ألكس». .

فجأة أفاقت من أحلام اليقظة ونظرت إلى ساعتها، يا لسخافتها! وتمتمت: «سيتأخر جاي عن الذهاب إلى العمل، هل نام هنا؟».

ـ لقد غادر منذ ساعة تقريباً. طلب مني أن أخبرك أن سيارتك صالحة للسير.

قالت إليزابيث فجأة: «آه، ما رأيك في الخروج للقيام ببعض التسوّق؟».

ـ فكرة حسنة!

* * *

حاول أن يشغل نفسه بالعمل لكن ذلك لم ينفع، وعندما حلّ العصر،

كان جاي قد نال الكفاية، فأقفل جهاز الكمبيوتر وجمع أشياءه، ثم خرج من المكتب.

خاب أمله عندما وصل إلى بيته فوجده خالياً. وأخذ يتمشى فترة لا يدري ما يفعل. وكان بين الحين والآخر يلقي نظرة على الطريق آملاً أن يرى سيارة إليزابيث. وبعد ساعة، ذهب إلى المكتب وأدار الكمبيوتر، متلهفاً إلى إلهاء نفسه عن التفكير في إليزابيث.

عندما سمع أخيراً صوت هدير السيارة، كان الظلام قد بدأ يحل. . لم يتحرك من أمام الكمبيوتر، لكن باب مكتبه لم يكن مغلقاً بالكامل، وهذا ما مكنه من رؤية الردهة الأمامية، وانتظر صوت فتح الباب.

وسمع أولاً صوت إليزابيث المفعم بالحيوية: «ذلك رائع للغاية يا شيريل، لا بد أنك سعيدة الآن!».

وسمع شيريل تقول: «لا يمكنني أن أصف لك شعوري! لم أدرك مبلغ حبي له حتى رأيته يقف هناك».

رأت من واقفاً هناك؟

وأشعل ضوء مكتبه، فالتفتت إليزابيث بدهشة: «جاي، لم أرك».

وتقدمت تفتح باب مكتبه على اتساعه: «ذهبنا إلى الفندق لنلغي حجز شيريل فرأينا آلان. . واقفاً هناك».

ـ أحقاً؟ هذا خبر طيب!

وابتسم. فابتسمت إليزابيث له وعيناها تشعّان إثارة: «نعم، كان كل شيء شاعرياً للغاية! لقد احتضنا بعضهما البعض في مكتب الاستقبال».

ـ هل هذا يعني أنكما ستقيمان عرساً من جديد؟

ـ بكل تأكيد! شكراً كثيراً لصبرك عليّ يا جاي. أنا شاكرة حقاً لمساعدتك لي!

ـ لم أفعل شيئاً!

ونظر إلى إليزابيث، مفكراً كم تبدو سعيدة متألقة، ليس لها الحق أن تبدو كذلك بينما هو يشعر وكأنه في جهنم. قالت شيريل بجد: «لقد بذلت

الكثير من أجلي، استضفتني في بيتك، وساعدني قضاء وقت مع إليزابيث كثيراً».

فهز كتفيه: «إليزابيث قادرة فعلاً على المساعدة. لطالما قال أبوها إنها تجيد التصرف في الأزمات، لأنها تداوي القلوب المحطمة».

أضاف جملته الأخيرة بجفاء وبدا شيء من التردد على شيريل، بينما تساءلت إليزابيث بغيظ عما يعنيه بهذا الكلام. وقابلت برودة عينيه، فشعرت أن البهجة التي عكسها خبر زواج شيريل قد بدأ يتلاشى.

قالت شيريل ناظرة إلى إليزابيث: «حسناً، سأصعد لأجمع أغراضي، لأن آلان ينتظرني الآن في الفندق، وأعرف أن لديكما أشياء تريدان التحدث عنها».

وعندما أسرعت صاعدة السلم، شعرت إليزابيث بالتوجس يتملكها.

كانت الطريقة التي نظر بها جاي إليها بعيدة كل البعد عن الطريقة التي نظر بها إليها ليلة أمس على الشاطىء، إذ بدا بالغ البرودة. وساد بينهما صمت خانق، ثم قال فجأة: «أظنك تريدين أن تذهبي إلى الفندق أنت أيضاً؟».

صعقتها هذه الكلمات. وقالت: «أظن أنه ينبغي عليّ هذا».

وبدا صوتها غريباً. لم تكن قد صممت على الرحيل مع شيريل. في الواقع، فكرت أثناء النهار بعلاقتها بجاي بشكل إيجابي، وكانت متشوّقة إلى رؤيته هذا المساء وإلى التحدث معه بصراحة وصدق.

يا لها من ساذجة! من الواضح أنه لم يكن جاداً حين تحدث عن إعطاء علاقتهما فرصة أخرى.

ـ فكرت في الأمور الليلة الماضية، وربما معك حق، لا فائدة من المحاولة مرة أخرى. ومن الأفضل أن نبقى صديقين.

ـ نعم.

ولم تعرف ما تقول.

ـ لديّ بشارة. لقد نجحت في إقناع مدير البنك بالتزامك بالعمل وقبل

البنك إعطاءنا القرض.

وفتح درجاً أخرج منه بعض الأوراق ثم قال: «جاءت الأوراق هذا الصباح مع رسول خاص».

ـ لا بد أنك مسرور!

ـ نعم!

وناولها الأوراق.

ـ الأفضل أن تأخذيها وتقرئيها. إذا كان لديك أي سؤال، يمكنك توجيهه إلى جورج في اجتماعنا غداً، وإلاّ وقّعيها وأعيديها إليّ. عندها ربما، لن يعود هناك ضرورة لكي تحضري معي الاجتماع.

فتقدمت إلى مكتبه تأخذ الأوراق، هل هذا هو السبب الذي جعله يتصرف بهذه البرودة نحوها الآن؟ هل فكر أنه وصل معها إلى ما يريد، في السرير وفي العمل، وهذه هي النهاية بينهما؟

شعرت بالغثيان، وتمتمت متجنبة عينيه: «سأقرأها وأعود إليك».

ـ نعم، افعلي ذلك!

استدارت وغادرت المكتب مغلقة الباب خلفها بحزم، ثم أسرعت صاعدة السلم.

أطلّت شيريل برأسها من باب غرفتها: «أهذه أنت يا إليزابيث؟ أيمكنك أن تتصلي بتاكسي لأجلي؟».

فقالت إليزابيث وهي تذهب إلى غرفتها: «لا حاجة لذلك لأنني ذاهبة معك!».

أخذت تلقي بالأشياء في حقيبتها. والغضب يجعلها تسرع في حركاتها. كيف كانت بهذا الغباء الذي جعلها تظن لحظة أن الأمور يمكن أن تتغير بينهما؟ وكيف يمكن أن ترتكب الغلطة نفسها مرة أخرى؟

ـ إليزابيث؟ هل أنت بخير؟

فاستدارت لسماعها صوت شيريل من الدهشة.

ـ لا!

وألقت بآخر قطعة من ثيابها في الحقيبة ثم أغلقتها بعنف وهي تقول: «ولكن كلما أسرعت في الخروج من هنا، كلما تحسنت حالتي».

لم يخرج جاي من مكتبه إلا بعد أن سمع الباب يُغلق خلفهما فسار في الردهة. وأول ما لاحظه هو أكياس التسوّق على الأرض، وقطب جبينه وهو ينحني ليلتقطها.

كانت الأكياس مليئة بالبقالة التي نقلها إلى المطبخ وابتدأ يفتحها. هل هذا يعني أنها لم تكن تنوي الذهاب مع شيريل إلى الفندق؟ زحف هذا السؤال إلى ذهنه. هل كانت ستبقى؟

ربما كانت ستبقى، ولكن إلى متى؟ لمدة يومين على الأكثر. وما الفائدة بحق جهنم؟ لقد انتهى زواجهما، قد يستطيع أن يشعل عواطفها في غرفة النوم، لكنه لن يستطيع أن يجعلها سعيدة خارجها.

أنهى إفراغ كيس ومد يده إلى آخر كيس لإفراغه، وإذا به يجده مليئاً بحاجيات نسائية وعلى قمتها أداة اختبار الحمل.

* * *

١٠ ـ الكذبة البيضاء

كان هذا واحداً من أهم الفنادق في جمايكا، وكان يبدو مليئاً بالعشاق. والأسوأ من ذلك أن إليزابيث كلما مرت بمكتب الاستقبال أو نزلت إلى الشاطىء تذكرت يوم عرسها، وتملكتها الكآبة لفشل زواجهما.

جلست مع شيريل على الشرفة الأرضية محاولة أن تتناول فطورها. لكنها لم تكن جائعة. عليها أن تقابل جاي في البنك هذا الصباح، ولكنها لم تكن متشوّقة إلى ذلك.

اتصل بها مبكراً ليسألها إن كانت تريد أن يمرّ بها ليأخذها معه، أو تعطيه الأوراق. وجعلها صوته ترغب في البكاء. فلم تجب سوى (لا، شكراً) ثم وضعت التليفون..

مالت شيريل إلى الأمام وسألتها برقة: «هل أنت بخير؟».

ـ نعم، لكنني مليئة بالتوجس فقد اتخذت قراراً بالنسبة إلى الحوض، سأبيعه لجاي!.

وصُعقت شيريل: «إليزابيث!».

فقالت هذه وهي ترتجف: «ما كان لي أبداً أن استجيب إلى تلك الوصية السخيفة منذ البداية، لقد تسببت لنفسي بالمشاكل».

فابتسمت شيريل: «كانت لدى هنري دوماً روح النكتة، لكنني سأخبرك عن الدافع الذي جعل هنري يملي هذا الشرط. كان يريد أن يدفعكما إلى بعضكما البعض».

ـ حسناً، هذا لم يحدث. لقد كانت النتيجة كارثة!

ـ طلب مني هنري، فيما لو لم تنجح الوصية ولم تتزوجي جاي، أن أعطيك الحوض في كل الأحوال. قال إنه من حقك يا إليزابيث، وقد وافقته على ذلك.

ـ نعم. أعلم هذا!

واغرورقت عينا إليزابيث بالدموع وقالت: «أخبرتني بذلك يوم الجنازة».

فقالت شيريل بكآبة: «أحقاً؟ لا أتذكر الكثير عن يوم الجنازة فقد كان كل شيء بالنسبة لي ضبابياً».

ـ نعم، قلت لي، وطلبت منك ألاّ تذكري هذا لجاي.

وأغمضت إليزابيث عينيها لحظة: «لقد خدعته عن سابق قصد وتصميم لكي يتزوجني».

ـ لكنه لم يكن مضطراً لقبول عرضك، فلماذا تعنفين نفسك؟

ـ هذا صحيح، لماذا إذن أشعر وكأنني مسؤولة؟

ورأت من بعيد خطيب شيريل قادماً نحوهما. كان «آلان» رجلاً وسيماً في أوائل الستينات. وقد أحبته إليزابيث منذ اللحظة التي رأته فيها، وسرّها أن شيريل تصالحت معه.

قالت بسرعة: «دعينا من هذا الموضوع، يا شيريل. لنضع الماضي خلفنا ونركز على المستقبل».

***

كان الموعد في البنك الساعة الحادية عشرة والنصف. وصلت إليزابيث مبكرة عدة دقائق، فطلبوا منها الانتظار في مكتب الاستقبال. أخذت تقلب صفحات مجلة كانت موضوعة على المنضدة، محاولة التظاهر بالاسترخاء. ولكن، عندما انفتح باب المصعد ودخل في الوقت المحدد، شعرت بتوتر أعصابها. بدا هادئاً في بنطلون فاتح اللون وقميص مفتوح عند العنق. تقابلت أعينهما فابتسم.

ـ مرحباً. هل انتظرت طويلاً؟

هزت رأسها لا تعرف ما تقول فجلس بجانبها على الأريكة وسألها بفتور: «كيف حال شيريل وآلان؟».

ـ بخير.

تنقلت عيناه بين حذائها العالي الكعب، وساقيها البديعتين، وقوامها الرشيق. كانت ترتدي ثوباً أزرق، أنيقاً وبسيطاً، ومثيراً في نفس الوقت، ثم سألها برقة زائدة: «هل أنت بخير؟».

ـ بأتم خير!

استمرت تقلب صفحات المجلة. وقطب جبينه: «جاءك اتصال تليفوني من لندن الليلة الماضية».

فرأى أن ذلك استحوذ على انتباهها الكامل.

ـ إنه شخص يُدعى «كولين». سأل إن كان بإمكانك الاتصال به في المكتب هذا النهار؟

ـ حسناً!

ـ يبدو أنهم لا يستطيعون الاستغناء عنك.

ـ ربما يريد كولين أن يسألني عن شيء يتعلق بالمحاسبة.

نظر جاي إلى الساعة على الحائط، محاولاً أن يتذكر من هو كولين. فقد أمضى فترة الليلة الماضية، يستعرض في ذهنه قائمة بالمدعوين الذين حضروا حفلة إليزابيث في لندن، محاولاً أن يتذكره. ولكن هذا لم يعد مهماً. . . لأنها في النهاية ستذهب إلى لندن. . . إلى ذراعي شخص آخر.

سألها بخشونة: «هل وقّعت الأوراق؟».

فنظرت إليه وقالت ساخرة: «شعرت مسبقاً بما ستسألني عنه».

ـ إذن فقد وقّعت الأوراق المتعلقة بالقرض؟

فاحمر وجهها: «ليس تماماً».

انفتح باب المكتب وخرج منه جورج.

ـ آسف جداً لتركِكما تنتظران!

وابتسم لهما وتقدم يصافحهما وساروا جميعاً إلى المكتب

سألهما جورج باسماً: «هل أرضاكما كل شيء؟».

فقال جاي: «نعم، بالنسبة إليّ. لكنني أظن أن لدى زوجتي بعض التحفظات».

ـ حقاً؟ وما هي المشكلة؟

ونظر إليها جورج مستفهماً. فقالت بصوت هادىء: «ما من مشكلة! كل ما في الأمر هو أنني قررت أن أبيع حصتي في العمل».

وساد الصمت الغرفة. ثم قال جورج دهشاً: «فهمت».

ولم تجرؤ على النظر إلى جاي، فإذا بدا مسروراً فسيفقدها ذلك اتزانها وهذا ما لن تحتمله. وتابع جورج: «حسناً، هذا يجعل الأمور مختلفة الآن».

ثم قلّب ملف أوراق على مكتبه.

ـ هل يعني هذا أنك وافقت على شروط جاي الأصلية التي عرضها؟

ـ نعم.

وفتحت حقيبتها وأخرجت الأوراق التي أرسلها جاي إليها: «لقد وقعتها الليلة الماضية».

ووضعت المغلف على المكتب، فمد جورج يده إليه: «حسناً!».

لكن يد جاي سبقته إلى المغلف: «ليس بهذه السرعة، أحب أن أراجع الأوراق أولاً، إذا لم يكن لديك مانع يا جورج».

ـ لا طبعاً!

وقطبت إليزابيث جبينها ونظرت إلى جاي: «ما الذي تريد مراجعته؟ إنه العرض الذي قدمته أنت».

ـ أعرف ما هو يا إليزابيث، لكنني أريد أن ألقي نظرة عليه مرة أخرى.

كانت نظراته تخترق عينيها، وأخذت تحدق إليه بحيرة.

وتمتم جورج يلطف الوضع: «حسناً، إنه قرار ضخم. ربما من الأفضل أن تذهبا الآن وتناقشا الأمر على الغداء».

فصافحه جاي: «أشكرك جزيلاً يا جورج».

ثم جرّ إليزابيث خارجاً بها من المكتب قبل أن تستجمع أفكارها فسألته غاضبة وهو يجرها نحو المصعد ويده تضغط على ذراعها بشدة: «لمَ كل هذه العجلة؟».

لم يجب جاي إلا بعد أن دخلا المصعد وأصبحا بعيدين عن الأعين الفضولية فقال صاراً على أسنانه من الغضب: «أي لعبة جهنمية كنت تقومين بها هناك؟».

ـ لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل؟ أليس هذا ما تريده؟ سوف أخرج من كل هذه الدوامة.

فقال ثائراً: «أنت لا تؤمنين بالبحث في الأمور معاً، أليس كذلك يا إليزابيث؟ المفروض أن نظهر أمام البنك بمظهر متحد. أما كان عليك أن تجعليني أفهم على الأقل ما ستفعلينه هذا النهار؟».

ـ أما زال هذا مهماً؟ لقد بعتك الحوض وبهذا لم يعد ثمة حاجة للتظاهر بشيء أمام البنك...

ـ ألاَ تظنين أنه يجدر بك أن تنبهيني إلى ما تخططين؟

ـ لا، فالقرار لي... وقد اتخذته.

وقف المصعد فخرجت منه إلى الشارع عبر ردهة صغيرة. كانت الشمس تعمي العيون بعد عتمة البنك، كما كانت الحرارة لاهبة. سارت برشاقة إلى حيث سيارتها مركونة. وسار جاي معها قائلاً: «ألا تريدين التحدث معي عن شيء؟».

فقالت دون أن تنظر إليه: «لا!».

مرا بالسوق المحلية. وكانت المنصات محملة بالفاكهة والخضار الطازجة. كان مكاناً يموج بالألوان، وتملأه الناس حياة. فجأة، شعرت إليزابيث بالتوعك، وبحاجة ماسة إلى السير ببطء. لم يكن السير بهذه السرعة في حرارة شمس الظهيرة فكرة حسنة. لكنها كانت تريد الهرب من جاي، وهكذا لم تنتبه إلى الإنذار في داخلها.

اجتازا السوق وضاق الرصيف، فسار جاي على الطريق بجانبها.

ـ أين ركنت سيارتك؟
ـ على مسافة من هنا.

ومد يده يوقفها عندما وصلا إلى مفترق مزدحم. وهتف يحذرها عندما تجاوزتهما سيارة لتدور حول المنعطف بصرير ثاقب.

ـ أنا قادرة على قطع الطريق يا جاي!

قالت هذا محاولة نفض ذراعها من يده فألقى عليها نظرة متفحصة، ثم أبقى يدها مكانها.

ـ ما الذي جعلك تقررين البيع فجأة، يا إليزابيث؟

ـ فكرت في ذلك فوجدت الحق معك. لا فائدة من التمسك بالعمل بينما حياتي في لندن الآن.

فترك ذراعها قائلاً: «هكذا إذن!».

كانت الطريق خالية وقوة الحرارة تذيب زفت الطريق. وملأت رائحة الزفت خياشميها. فقالت بعنف: «لا أدري ما الذي أغضبك مني؟ فهذا ما تريده أنت. سيكون لك السيطرة التامة على الحوض».

وشعرت بدوار فأبطأت خطواتها، وانتابها خوف من عبور الطريق.

ـ لا أدري! ولكن كان عليك أن تحذريني قبل أن تذهب إلى البنك اليوم!

وقطب جبينه وهو ينظر إليها: «هل أنت بخير؟».

ـ بأتم خير!

كانت قد وصلت إلى سيارتها وأخذت تبحث عن المفتاح في حقيبتها: «لا يبدو عليك ذلك!».

فأجابت ساخرة: «شكراً».

ـ لمَ لم تعثري على المفاتيح؟

كانت تشعر وكأن الحرارة خمسون فوق الصفر، وبدا لها وكأن الرصيف يتحرك تحت قدميها. كان شعوراً غريباً مشتتاً للأحاسيس.

ـ اذهب ودعني وحدي!

وظهر ذعر مفاجيء في صوتها فهي لم تشأ أن يراها تتقيأ.

ـ لا لن أتركك!

ومد ذراعه يحيط بها، فكانت شاكرة لذلك إذ وهنت ساقاها فلم تستطيعا حملها. فمالت تتكيء عليه، وهي تقول برقة: «لا أشعر أنني بصحة جيدة».

ـ ستكونين على ما يرام!

كان صوته رقيقاً الآن، ومختلفاً جداً عما كان منذ لحظات.

ـ تنفسي بعمق عدة مرات!

ـ لا أستطيع. الجوّ حار جداً!

ـ سيارتي الجيب خلف سيارتك تماماً، هيا! سأعيدك بنفسي.

كان صوته مختلفاً عطوفاً في أذنيها. أرادت أن تناقشه وأن تطلب منه أن يبتعد عنها، لكنها لم تجرؤ. كانت تشعر بضعف لا يُصدق. وكان هذا شعوراً مخيفاً.

سألها وهو يفتح لها السيارة لتصعد: «أتشعرين بتحسّن؟».

شعرت بذلك بعد أن جلست، فأومأت بالإيجاب، شاعرة بالحماقة.

ـ فقط دعني أتنفس! فقد تتحسن حالتي بعد دقائق ويصبح بإمكاني العودة بسيارتي.

نظر إليها جاي متشككاً، ثم أغلق الباب عليها وصعد إلى مقعده. أدار مكيّف الهواء، وسرعان ما شعرت بالارتياح وتمتمت وهي تسند رأسها إلى الخلف: «آسفة لذلك! كان ذلك بسبب الحر الشديد؟».

لم يقل جاي شيئاً، وأخذ ينظر إليها متفحصاً. لم يرها قط بهذا الشحوب من قبل. كانت بشرتها مزرقّة تقريباً، وكأنما انعكس لون ثوبها عليها. وبدت عيناها وكأنهما تحتلان وجهها.

ـ لم أعد معتادة على هذا الجوّ!

أخذت تكرر ذلك، محاولة تبديد هذا الشعور المفاجيء بالتوتر. ثم قالت: «سأذهب إلى الفندق بمفردي. لقد تحسنت».

قال جاي بهدوء: «بل سآخذك أنا إلى الفندق».

فتحت فمها لتجادله، فنظر إليها بحدة. كانت تعرف جيداً أن نظرته تلك تعني أنه لا يطيق الاعتراض. وربما كان على حق، فحالتها لا تساعدها على قيادة السيارة!

ـ شكراً لك لأنك ستقلني.

بدت على جانبي فمه ابتسامة ساخرة، ثم حوّل انتباهه إلى الطريق.

قطبت جبينها وأخذت تنظر من السيارة. شعرت بتحسن كبير، ولكنها بقيت تشعر بقليل من الدوار. أتراها حامل؟ أرسل هذا التساؤل الخوف في كيانها، ماذا ستفعل لو حدث هذا؟ هل تستطيع مواجهة الأمر وحدها؟ وحاولت جاهدة أن تصرف ذهنها عن التفكير في نفسها.

ـ ألم يكن قراري بأن أبيعك بالخبر طيب؟ صدقني، ظننتك ستسرّ بذلك.

فتمتم يقول: «أظنني كذلك!».

ـ هذا لا يبدو من لهجتك!

ونظرت إليه وقلبها يخفق.

ـ قلت لك إنه كان عليك أن تخبريني مسبقاً عما تنوين فعله. شعرت بنفسي معتوهاً في البنك، وكأنه ليس لديّ فكرة عما تريده زوجتي!

ـ أتعني أنني خدشت كبرياءك؟

صرت اليزابيث على أسنانها وقد غضبت من جديد. كان عليها أن تدرك أن هذا كل ما يهمه.

ـ ولكن انظر إلى الأمر من الناحية الإيجابية. إنه مجرد إزعاج بسيط بالمقارنة مع توقيعي لأوراق البيع لك واختفائي من حياتك!

لم يجب وإنما توجه بسيارته نحو الفندق.

ـ انزلني عند المدخل الأمامي، فهذا أفضل!

أوقف السيارة في الموقف قائلاً: «سآتي معك».

ـ لا. صدقني، أنا بخير الآن!

لكنها كانت تتحدث إلى نفسها، إذ كان جاي قد نزل من السيارة ودار حولها ليفتح لها الباب. نزلت بنفسها قبل أن يمدّ لها يده ليساعده. وقالت بسرعة: «لا بد أنك مشغول جداً بعد الظهر في الحوض، شكراً لتوصيلك لي! لكنني لن أعيقك أكثر من ذلك».

وضع ذراعه بثبات حول خصرها، قائلاً بحزم: «بل لدي وقت لآتي معك».

ولم تستطع مجادلته مرة أخرى، فأذعنت لمشيئته.

سارا مجتازين مكتب الاستقبال ثم الشرفة الأرضية.

ـ غرفتي هناك!

وأشارت إلى الطريق الذي يؤدي إليها عبر الحدائق قرب الشاطىء: «لا بأس!».

وسار معها وذراعه حول خصرها، وقالت وهي تفتح حقيبتها تخرج المفتاح: «أشعر بتحسن كبير الآن، وأنا واثقة من أنك مشغول!».

فابتسم: «ليس لدي ما أقوم به!».

ـ ألن تذهب إلى الحوض اليوم؟

ـ لماذا تهتمين بذلك، طالما بعته؟ فلن يهم ولو انهار المكان كله حطاماً، أليس كذلك؟

ـ حسناً، لا أحب أن أفكر في أنه سينهار حطاماً...

ووجدت المفتاح فقبضت عليه مسرورة. لكن جاي أخذ المفتاح منها وفتح الباب.

ـ حسناً الوداع!

فقال وهو يدخل معها: «لن أذهب إلى أي مكان الآن!».

كانت مروحة كبيرة تدور في السقف، باعثة في المكان برودة منعشة.

فقال وعيناه تكتسحان السرير الضخم، ثم المنظر البادي من النافذة للبحر الفيروزي اللون: «لقد نسيت جمال الغرف هنا».

ـ نعم. إنها لطيفة!

وقذفت حذاءها من قدميها وهي تتقدم لتسكب لنفسها كأس ماء من إبريق على المنضدة، وسألته بأدب: «أتريد شراباً؟».

ـ لا شكراً!

فحملت كأسها وجلست على حافة السرير، فقال: «لقد عاد إلى وجهك بعض اللون على الأقل».

ـ نعم. أشعر بتحسن كبير الآن. شكراً!

وتمنت لو يفهم الإشارة فيذهب. أرادت أن تستلقي لترتاح. وسألها وهو يتجه إلى التليفون: «ما هو رقم غرفة شيريل؟ سأتصل وأرى ما إذا كانت موجودة».

ـ لماذا؟

ـ الأمر واضح! لا أريد أن أتركك وحدك وأنت مريضة.

ـ أخبرتك أنني بخير يا جاي، لا حاجة لكل هذه الضجة...

ـ بل أظن أن ثمة حاجة! هل تعرفين رقم غرفتها أم أطلب رقم الاستقبال لأسألهم؟

قالت متذمرة: «سبعون».

طلب الرقم، وعندما لم يتلق جواباً، اتصل بالاستقبال طالباً أن يرسلوها.

ـ حسناً، يمكنك أن تذهب الآن!

قالت له هذا عندما وضع السماعة. فنظر إليها لحظة، ثم قال فجأة: «أظن أنه عليك أن تستلقي على السرير، كدت تصابين بالإغماء يا إليزابيث، يجب أن ترتاحي!».

ـ نعم... سأرتاح... بعد ذهابك.

ـ لن أذهب إلى أي مكان قبل أن تأتي شيريل إلى هنا. وفي الواقع، أفكر في الاتصال بطبيب.

ـ أنت تمزح.

ـ لا أظن أن الأمر موضع مزاح! أنت حامل أليس كذلك؟

سألها ذلك بهدوء. فشعرت بوجهها يتوهج: «لا!».

ـ لا تكذبي علي، يا إليزابيث. لقد عشت في هذه البلاد سنوات طويلة، ولم أر قط الجو الحار يؤثر فيك كما حدث اليوم.

ـ أخبرتك بأنني لم أتأقلم معه، وهذا كل شيء!

لكن كلماتها خرجت جوفاء وشعرت بأنه لم يقتنع على الإطلاق. ومن يلومه ما دامت هي نفسها غير مقتنعة؟

ـ إذن فأنت لست بحاجة إلى هذه!

ووضع سترته وأراها أداة فحص الحمل التي اشترتها أمس. تملكها الرعب للأمرين: لأنه أخذها من بين مشترياتها، ولأن الوقاحة بلغت به أن يحضرها إلى هنا ليواجهها بها.

ـ حسناً؟

بدا وكأن عينيه القاتمتين تحرقان عينيها، فلم تجب.

ـ أخبريني بالحقيقة فقط، يا إليزابيث. هل أنت حامل؟

ـ لو كنت أعلم هذا لما اشتريت هذه الأداة. كفى أسئلة! هل سمعت؟

وحملقت فيه بغضب، فقال بهدوء: «لا. لم أسمع. كم تأخرت عليك العادة الشهرية؟».

ـ إذهب من هنا!

ـ لا، لن أذهب!

انحبست أنفاسها في صدرها إلى حد مؤلم. أخذت تنظر إلى الأمواج التي تتكسر على الشاطىء الأبيض، محاولة أن تفكر بأشياء تهدئها. لكنها لم تستطع التفكير بشيء، كل ما استطاعت التفكير فيه هو أنها أحبت جاي من كل قلبها وأنها لن تتغلب على حقيقة أنه لم يستطع مبادلتها الحب.

ألقي بالعلبة على السرير خلفها. ثم سألها فجأة: «لماذا وافقت على شرط الزواج بي ما دمت لا تشعرين بشيء نحوي؟».

جعلها هذا السؤال الساخر تحترق في داخلها: «أنت تعرف لماذا وافقت. كنت أريد ما هو حق شرعي لي، حوض أبي لبناء المراكب».

- إذن، السبب الوحيد هو المال؟

- لا!

واستدارت تواجهه وقد أفلت هذا الإنكار من بين شفتيها دون وعي منها.

- ماذا إذن؟

- إنه. . .

وحدقت فيه بصمت. لم تستطع أن تخبره أن ذلك كان لأنها تحبه. منعتها كبرياؤها من ذلك فعادت تقول: «كان الأمر مسألة مبدأ. الحوض هو حق شرعي لي».

فقال ساخراً: «ما أروع أن أراك تتحدثين عن المبادىء! ألا تظنين أنك ضحيت بكل تلك المبادىء حين اقترحت الزواج لمجرد المصلحة؟ ثم طارحتني الغرام؟».

حوّلت نظراتها عنه وقالت: «لا تلق علي محاضرات يا جاي! أنت من أصرّ على أن يكون زواجنا حقيقياً، قلت إنك لن تقبله إذا كان بالاسم فقط. وجعلتني أوقع على تعهد بذلك قبل الزواج. كانت هذه شروطك!

- هذا صحيح، لكنك خرقت هذا التعهد!

كان صوتها يرتجف: «لا، لم أفعل. فقد قمت بواجباتي الزوجية معك!».

- أتعنين أنك فعلت هذا مرغمة؟

فنظرت إليه بحدة: «أنت تعلم أن هذا غير صحيح».

- نعم. . . كان هذا الجزء الوحيد من زواجنا الذي انسجمنا فيه معاً.

قال هذا بصوت منخفض وهو ينظر إليها بحدة، فشعرت بجسدها يحترق. وتابع يقول بلطف: «من المؤسف أن يكون هذا كل ما كان بيننا، ولكن لا بأس، فقد استمتعت بفترات متعتنا القصيرة تلك».

فقالت تحذّره وهي ترتجف: «لا تتحدث عما كان بيننا بهذا الشكل».

فسألها بهدوء: «لمَ لا؟».

وكرهته هذه اللحظة. . . كرهته لأنه يظهر ما كان بينهما بشكل تافه مبتذل، يحوّل شيئاً رائعاً ثميناً إلى متعة تافهة. وعندما لم تجب سألها: «أخبريني إذن. . . ماذا تظنين بالنسبة إلى مقدار احتمال أن يكون الطفل مني؟».

أعماها الغضب لسماعها هذه الكلمات، فرفعت يدها لتصفعه إلا أنه أمسك معصمها يمنعها محذراً: «لو كنت مكانك لما فعلت ذلك!».

اشتبكت عيناها بعينيه، وإذا بطبعها يهدأ على الفور. حدّقت إليه. ثم همست بلهجة مرتجفة: «آسفة! لم أقصد ذلك!».

وحدق إليها بعينين مظلمتين عنيفتين، ثم ترك يدها.

- لا. أنا الآسف! ما كان لي أن أقول ما قلته. لكنني أريد فقط أن تعطيني جواباً صادقاً ولو مرة واحدة!

اغرورقت عيناها بدموع مفاجئة، وهمست وهي ترتجف: «إذا كنت حاملاً، فالطفل هو طفلك، لأنني لم أعرف غيرك!».

- لقد جعلتني أعتقد. . .

فقالت وهي ترتجف: «لأنني أردتك أن تعلم أنك لست أعظم الرجال، يا جاي هاموند! لقد تلقيت الكثير من عروض الرجال منذ انفصلنا. . . وكذلك قبل أن نتزوج، ولهذا. . .».

- يا لجهنم! أنا أعرف هذا، لست أعمى، فأنا أرى كيف ينظر الرجال إليك!

- نعم. حسناً، أردت أن تعلم أني لست بحاجة إليك.

ورفعت رأسها متحدية، وكان هذا المظهر يناقض تماماً مظهر الدموع المنحدرة على وجنتيها.

- في الحقيقة، يمكنني تنظيم حياتي جيداً جداً بمفردي!

- أعلم هذا. . وأتمنى من كل قلبي لو أنك لا تقوين على ذلك ولكنك قادرة على ذلك إلى حد لعين!

- لا، أنا لست كذلك!

ومسحت دموعها بيد مرتجفة: «إذا كنت حقاً تريد أن تعلم، أنا أكاد أموت خوفاً!».

فسألها بهدوء: «مم تخافين؟».

ـ من أن أكون حاملاً وأنا وحدي. . .

ـ آه، يا إليزابيث!

وفجأة أصبحت بين ذراعيه يحتضنها بشدة إلى صدره الدافىء.

ـ لن تكوني مضطرة لأن تكوني وحدك!

ـ بل أنا كذلك!

ورغم الكلمات، سمحت لنفسها بالاسترخاء على صدره، محاولة أن تهدىء نفسها وتفكر بالمنطق. ما أجمل أن تكون بين ذراعيه، تمنت فقط لو تنسى حقيقة أنه لا يحبها؛ تنسى كل شيء ما عدا حقيقة أنها تحبه، وأن هذا هو المكان الذي تريد أن تكون فيه، أكثر من أي شيء في العالم.

ـ سأعتني بك!

تمتم بذلك بحنان، وهو يزيح شعرها عن وجهها ويقبّل دموعها، ويمسحها عن خديها الناعمتين. ولكنها ما لبثت أن ابتعدت عنه بغضب: «لا أريد أن تعتني بي! لست بحاجة لك ولا أريد إحسانك».

وأدارت له ظهرها.

ـ أنا لا أقدم إليك احساناً يا إليزابيث. هذه سخافة!

ـ مهما كان ما تقدمه، فهو لا يكفي.

قالت هذا وهي ترتجف. وساد صمت طويل جاهدت أثناءه كي تتمالك نفسها ثم همست برقة: «من الأفضل أن تذهب الآن!».

ـ إذن فليس لديك حبيب في لندن؟

سألها هذا متجاهلاً قولها، فهزت رأسها نفياً.

فقال بغضب: «لا أفهم لماذا كذبت عليّ. ظننت. . . لا، بل كنت مقتنعاً بأنك تخرجين مع رئيسك. لقد رأيتك معه في النهار الذي تلا تلك الليلة التي أمضيناها معاً. جئت إلى المكتب لآخذك إلى الغداء، لكنك

كنت معه!».

ـ إنه رئيسي وغالباً ما نذهب معاً في غداء عمل.

وهزت كتفيها ثم ذهبت تحضر لنفسها منديلاً ورقياً.

ـ لا أستطيع أن افهم لماذا كذبت علي بقولك إن لديك حبيباً!

فقالت بحزم: «أخبرتك بأنني لم أكن اخرج مع جون بصفته حبيباً. والفكرة نفسها غير معقولة لأنه سعيد في زواجه!».

ـ لكنك جعلتني أظن أن هناك شخصاً آخر!

ـ لقد أخبرتك بالسبب، وكانت هذه كذبة بيضاء. لقد قلتها لكي أجعلك تذهب. . .

ـ أما زلت تريدين أن أذهب؟

هزت كتفيها، لم تكن في الحقيقة تعلم ما تريد. عليها إذا استطاعت أن تجعله يحبها أن تتخلى عن الحذر والكبرياء. ولكن ما الفائدة؟ فحتى إذا أعادها إليه فستبقى تراقبه على الدوام، خشية أن تأخذه منها أول امرأة جميلة تكتسحه بنظراتها.

ـ إذا كنت حاملاً، فهل ستبقين؟

فنظرت إليه متعجبة: «لا تخبرني أنك تحب أن تكون أباً».

فقال بهدوء: «لا أستبعد هذه الفكرة، وأظنني سأكون أباً صالحاً!».

ـ قد يكون هذا صحيحاً. لكن الطفل ليس سبباً كافياً لنعيش معاً.

ـ إذا كنت حاملاً، فلا أريد منك أن تذهبي إلى لندن!

ـ هذا ليس قرارك أنت، بل قراري.

ـ بل قراري. . . ولكن لا. . . ينبغي أن يكون. . . قرارنا معاً.

حاولت أخيراً أن تخرج من هذه الدوامة، فقالت: «كل هذا مجرد افتراض! على كل حال، قد يكون الأمر مجرد ضربة شمس».

ـ حسناً، دعينا نعلم إذن!

وأشار جاي برأسه إلى العلبة على السرير.

ـ لماذا لا تذهبين إلى الحمام لتستعملي هذا؟

- لن أفعل!

قالت ذلك بذعر فسار نحو التليفون ورفع السماعة فسألته بصوت مرتفع: «ماذا تفعل؟».

وكان يطلب الخط متجهم الوجه: «أتصل بطبيبي».

- لا تفعل!

وذهبت إليه تحاول أن تأخذ السماعة من يده، لكنه أبعدها عن يدها وأكمل طلب الرقم.

- مرحباً يا جين، هنا جاي هاموند!

فحاولت الوصول إلى التليفون لتقطع عليه المكالمة وقد تملكها الفزع لكن جاي أمسك بها بسهولة وهو يتابع كلامه: «نعم، أريد موعداً لزوجتي ليراها الطبيب اليوم، وأرجو أن يكون الموعد في أقرب وقت ممكن...».

حاولت إليزابيث التخلص من يده لكي تأخذ السماعة، لكنها كانت كالفأرة التي تكافح القط. وأخيراً قالت بذعر: «لا بأس. سأستعمل أداة الفحص. فقط دع التليفون!».

- انتظري لحظة يا جين!

وغطى فوهة السماعة بيده، ليخاطب إليزابيث.

- هل هذا وعد؟

وكان صوته ينذر بالشر. فأومأت بغضب. فعاد إلى التليفون يخاطب سكرتيرة الطبيب: «سأعود إليك في ما بعد، يا جين... نعم، إنه مناسب...».

ووضع السماعة، ثم حدّق في إليزابيث: «الموعد هو الثالثة بعد ظهر الغد».

فتمتمت ثائرة وقد احمر وجهها: «أنت عنيد أحياناً، يا جاي. ليس لك الحق في أن تفعل هذا! لن أذهب إلى الطبيب».

- لماذا؟

- لأنني... لأنني سأذهب حين أريد أنا لاحين تريد أنت!

بدت لمعة هزل في عيني جاي لحظة، ثم قال ساخراً: «أنت امرأة عنيدة للغاية، يا إليزابيث؟».

- وأنت لا تطاق!

التقط العلبة عن السرير وناولها إياها: «اذهبي إلى الحمام وقومي بالاختبار».

- سأفعل هذا عندما تذهب.

- لا بد أنك تمزحين! سأشرب القهوة خارجاً أثناء انتظاري. ناديني حين تنتهين!

***

١١ ـ أمل لا يموت

استمرت تحدق إلى الباب فترة بعد أن غادر الغرفة. من يظن نفسه بحق الله؟ إنه أسوأ رجل متغطرس متسلّط عرفته. وأخذت العلبة ودخلت إلى الحمام واقفلت الباب خلفها، ستبقى في الحمام طوال الليل، وإذا اقتضى الأمر فستنام فيه.

أخذت تنظر إلى نفسها في المرآة. كانت تبدو مخيفة. أتراها حاملاً؟ ونظرت إلى العلبة في يدها. كان الرعب يتملكها من القيام بالفحص. ماذا ستشعر إن كانت النتيجة إيجابية؟ وماذا ستفعل حينذاك؟ ربما عليها أن تقوم بالاختبار الآن، أثناء انتظار جاي. . . ألا يستحق أن يعلم الحقيقة؟ واختلطت الأمور في ذهنها. ثم تذكرت الحنان الذي طوقها به بذراعيه، وهو يطمئنها إلى أنها لن تكون بمفردها.

***

أنهى جاي شرابه ووضع الزجاجة على المنضدة، ونظر إلى ساعته. . لقد تأخرت في الحمام، فقد كتب على العلبة أن نتيجة الفحص تظهر على الفور. شعر بالتوتر والعجز، وكأنه تلميذ ينتظر نتيجة الامتحان.

ما كان له أن يرغمها على القيام بالاختبار. إنه عديم الصبر أحياناً. . فتح الباب خلفه واستدار على عقبيه.

كانت واقفة في العتبة وعلى وجهها مظهر عدم اليقين. فقطب جبينه: «حسناً؟».

ـ حسناً، لقد قمت بالاختبار.

وتقدمت تتكيء على الدرابزين. كان البحر على بعد أمتار فقط. فأخذت تنظر إلى الأمواج تنساب بخفة على الشاطيء الأبيض.

كان يرقبها بإمعان، وعيناه تلاحظان كل شيء فيها، فأثار هذا أعصابها. ثم قالت بمرح: «أنت خارج الصنارة».

ـ ألست حاملاً؟

ـ تبدو عليك خيبة الأمل!

والتفتت تنظر إليه، وقلبها يخفق بعنف.

ـ نعم. لقد خاب أملي!

ـ لقد خدعتك مرة لكي تتزوجني، ولا أستطيع اصطيادك لتبقى معي!

قالت هذه الكلمات دون أن تنتبه إلى أنها تقولها بصوت مرتفع.

رأت مظهر الحيرة في الوجه الوسيم، الذي قال صاحبه: «هذا كلام جنوني. إنني أعطي أي شيء مقابل أن تحملي مني، فقط لكي يكون لي عذر في أن أبقيك معي هنا».

نظرت إليه مستيقظة مجفلة من أفكارها: «لماذا؟».

فقال بهدوء وعيناه في عينيها: «لأنني أحبك، وأفعل أي شيء لأجلك».

هزت رأسها متسائلة عما إذا كانت تسمع بشكل صحيح، بينما تابع يقول: «كنت واقفاً هنا، راجياً الله أن تكون نتيجة الاختبار إيجابية. لقد تحطمت!».

كان صوته ناعماً للغاية، وتخللت شعرها بإصابعها.

ـ تحطمت لأنني لست حاملاً؟

أومأ مجيباً. لم يكن ثمة شك في خيبة الأمل التي بدت في وجهه.

فقالت بصوت جاف لم تكد تعرفه: «لم تخبرني قط من قبل بأنك تحبني. . . وحتى عندما كنت تحتضنني، لم تقل لي قط هذه الكلمات».

وأوشكت الدموع أن تنهمر من عينيها.

ـ لم تشائي سماعها!

- كنت متشوقة جداً لسماعها.

- إليزابيث، كنت دوماً تؤكدين، أن ما بيننا ليس إلا (اتفاقية عمل) (اتفاقية مناسبة)... أليس هذا ما كنت تسمين به زواجنا؟ لقد اكدت على هذه النقطة منذ اللحظة التي عرضت فيها الزواج.

- هذا غير صحيح!

- هيا يا إليزابيث! بل أنت تعلمين أن هذا صحيح! لقد اتخذت حجة العمل قائلة إن علينا أن نعيش معاً لكي نجعل زواجنا يبدو حقيقياً... وبذلك نتمكن من الحصول على الحوض.

فقالت بصوت يهتز غضباً: «هذا فقط لأنني كنت أعلم أنك لا تريدني حقاً. لديّ كرامتي يا جاي هاموند، لم تنظر إليّ قط. كنت مشغولاً بالركض وراء النساء. وعندما اقترحت أن نتزوج، كدت تسقط من هول الصدمة».

فضحك: «حسناً، نعم. فعلت هذا. ولكن عليك أن تعترفي أن هذا شيء غير عادي...».

- لكنك لم تكن تريدني، أليس كذلك؟

- بل كنت أريدك فعلاً!

وكان صوته رقيقاً مرتبكاً: «لو لم أشعر نحوك برغبة لكنت غير طبيعي... ألم أبرهن على ذلك لك ليلة عرسنا؟».

وانتهى صوته همساً عاطفياً جعل خفقات قلبها تتسارع. فقالت محتفظة بصوتها ثابتاً قدر الإمكان: «لم تطلب مني قط قبل الزواج أن أخرج معك».

- لأنك كنت جادة على الدوام. كنت أعرف أنني إذا لمستك، أو قبلتك، فلن تكون هناك عودة إلى الوراء. وكنت دوماً أوحي إلى نفسي بأنني لا أريد علاقة جادة مرة أخرى. في الحقيقة، كنت خائفاً جداً من الالتزام مرة أخرى... خائفاً من إقامة علاقة أخرى. هذا هو السبب في تمسكي بالعلاقات العابرة، فقد بدت أسلم!

وأخذت نظراته تتنقل بلطف على وجهها المرفوع إليه، ثم ابتسم: «لكنني رغبت فيك منذ اللحظة التي رأيتك فيها أول مرة».

فقالت بغضب: «أنت كاذب، فأول لحظة رأيتني فيها كنت تعانق امرأة أخرى».

فابتسم لقولها: «لكنني كنت أعانق المرأة الخطأ. رفعت بصري، ورأيتك... و... هكذا كان. ولم تعد حياتي كما كانت».

- لا أدري لماذا تقول هذا، يا جاي، لكنني أعلم أن هذا غير صحيح.

ضاقت عيناها: «هل أنت متلهف لتكون أباً لذا تقول أي شيء لكي تبقيني هنا؟ هل هذا هو السبب؟».

- لقد استغرقني التغلب على عقدتي وقتاً طويلاً بعد أن تركتني زوجتي هاربة مع عشيقها، ومضى وقت طويل قبل أن أستطيع الوثوق بامرأة مرة أخرى. نعم، لقد خرجت مع نساء كثيرات قبل أن نتزوج، ولكن لم تعن لي أي منهن شيئاً.

فسألته: «هل لأنك تحب زوجتك السابقة؟».

- هذا مجرد هراء! عندما طلقتها، شعرت بنفسي فاشلاً. ولكن عندما أعود بتفكيري إلى الوراء، أرى أن كرامتي هي التي تضررت أكثر من أي شيء آخر. لذا قررت ألاّ أجعل هذا يتكرر مرة أخرى وهكذا صرت أعبث مع النساء، وحاولت أن أبقى بعيداً عنك.

- لم تلحظني حتى.

فابتسم: «بل فعلت! في أول مرة رأيتك فيها كنت ترتدين ثوباً أبيض. وعندما كنت تقفين وخلفك النور، كنت أرى روعة جمالك...».

تذكرت ذلك الثوب. تذكرت كيف اكتشفت أنه شفاف أمام الضوء فلم تلبسه بعد ذلك. هل كانت تلبسه يوم قابلت جاي لأول مرة؟ لم تستطع أن تتذكر، وكانت واثقة من أن جاي أيضا لا يتذكر.

- عندما تحدثنا في هذا الموضوع في لندن، لم تتذكر اسم المرأة التي كنت تعانقها... فهل تتوقع مني أن أصدق أن بإمكانك أن تتذكر ما كنت

ألبس؟

- صدقي ما تشائين، لكن الواقع هو أنني اعتدت أن أراقبك وأن أشعر نحوك بالرغبة. كنا نتناول معاً شراباً بعد العمل أحياناً فأسألك إن كان لديك موعد مع صديق. وكنت دوماً أشعر بالارتياح عندما تقولين إن ليس لديك أحد، وعندما كنت تقولين إن لديك موعداً، كنت أريد أن أقول لك أن تلغيه، وأن أقول للشاب أن يبتعد عنك. . كانت الغيرة تأكلني أكلاً.

هزت رأسها وقلبها يخفق بعنف: «بل لم تكن تهتم أبداً! لو كان ذلك صحيحاً لطلبت مني الخروج معك».

فهز رأسه وعلى شفتيه ابتسامة هازئة وقال: «نعم، حسناً، هنا تكمن الصعوبة. كنت مكمن الخطر. كنت أعلم أنني إذا بدأت بالخروج معك. . . وعانقتك. . . فسيكون الأمر جاداً، وزاد الأمر سوءاً أنك كنت فتاة حسنة للغاية، وأنك ابنة الرئيس وكان رجلاً أحبه واحترمه. لذا، لم استطع العبث بعواطفك. . . لم استطع المغامرة بجعلك تتألمين. . .».

ونظر إليها بعينين جادتين مصممتين: «لقد تجنبتك متعمداً لكنك لا تتصورين كم كنت أتمالك نفسي كلما رأيتك؟».

- عندما طلبت منك أن تتزوجني، فكرت كثيراً في ذلك. . . لم تخبرني حينذاك أنك كنت تحبني. أتذكر النظرة التي بدت في عينيك حينذاك، كنت مذعوراً!

مدّ يده يلامس خدها برقة: «لقد فاجأتني، هذا كل ما في الأمر!».

- ما كان علي أن أعرض عليك الزواج.

فهمس وعيناه على شفتيها: «بل كنت مسروراً لذلك، لقد وقعت في فخ الزواج بك دون أن أضطر إلى اتخاذ قرار بذلك».

فقالت بصوت مرتجف: «أتعني أنني كنت لك ملجأ الأمان، بحيث تستطيع أن تنشىء علاقة بمن ترغب، ثم تفصم العلاقة متى تريد متخذاً مني عذراً؟».

وبدا عليه الفزع: «لا، أبداً».

- آه، أنت تكذب يا جاي! هذا ما كنت تفعله مع ليزا؟

فأجاب بسرعة: «علاقتي بليزا كانت قبل أن أتزوج».

- لكنني رأيتكما معاً!

وحاولت جهدها أن تجعل كلماتها ثابتة، لا أن تقذفها في وجهه غاضبة، لكن ذلك أجهد أعصابها، فسألها مقطباً: «متى؟».

- قبل أن أرحل، كنتما متأخرين في المكتب. حسناً، المفروض أنكما كنتما مشغولين. . . أم إنك تحب وضع صديقاتك على مكتبك، أليس كذلك يا جاي؟

وهمت بالتحوّل عنه، لكنه أمسك بها وأدارها إليه.

- انتظري لحظة. لا يمكنك أن تقذفي هذا الكلام في وجهي، ثم تذهبي. لم أضع ليزا على مكتبي، كما تقولين، لقد عانقتني فقلت لها بحزم إنني أحب زوجتي.

- هل جعل هذا الأمر بينكما أكثر إثارة؟

ورأت الاحمرار يكسو وجهه، وتساءلت فجأة عما إذا ذهبت بعيداً. فقد بدا بالغ الغضب.

- لم أكن على علاقة مع ليزا كانينغام عندما كنا، أنت وأنا، معاً. لقد خرجت معها بعد رحيلك عدة مرات، وقد ظننت أنك تعنين تلك الفترة، عندما ذكرت اسمها على شاطىء البحر تلك الليلة.

حدّقت إليه وقلبها يخفق بعدم ارتياح. فعاد يقول: «آه، صدقيني يا إليزابيث! أنا أقول الحقيقة».

- لكنني سمعتها تتحدث عن علاقتكما. كان ذلك ليلة كنا فيها في نادي البولو. كنت أنا في استراحة السيدات وكانت هي تحدث صديقتها عنك. . . وعن مهارتك في الحب وعن عدم حبك لي وعن زواجنا القائم على المصلحة لا على السعادة والحب.

- وهكذا قررت أن تتركيني أولاً؟

- جعلني هذا أدرك الغلطة التي اقترفتها. . .

فسألها بغضب بالغ: «وتركتني لأجل ذلك؟ لقد كانت تكذب. عليها اللعنة!».

ـ وكيف علمت أن زواجنا كان زواج مصلحة لأسباب عملية؟

ـ لا أدري، ولكنني لم أخبرها بشيء من ذلك!

وكان صوت جاي بالغ البرودة والازدراء بحيث ترددت: «ألا يمكنك أن تصغي إليّ؟ أحبك يا إليزابيث وعندما تزوجتك أردت أن يدوم زواجنا طول الحياة. سأفعل أي شيء لأبقيك هنا، سواء كان هناك طفل أم لا!».

هل أراد حقاً، عندما تزوجها، أن يدوم ذلك الزواج طوال العمر؟

قالت له فجأة: «لماذا طلبت مني الرحيل ليلة أمس؟».

ـ لأنني سمعتك تخبرين شيريل بأنك لا تحبينني، وأنه من دون الحب لن تنجح علاقتنا. لقد أغضبني هذا، يا إليزابيث. وفكرت أن لا جدوى من المحاولة.

ـ تعجبني عندما تحاول!

ومنحته ابتسامة مرتجفة وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

ـ ويمكنني أن أبالغ في المحاولة.

وبانت في عينيه لمحة هزل.

وأرادت أن تقبله فجأة... تقبله وتحتضنه بشدة.

ـ لمعلوماتك الخاصة، لم أتخذ عشيقة قط. فأنا أؤمن بحرمة الزواج. نعم، خرجت مع ليزا لتناول الغداء مرتين أو ثلاث عندما كنت في لندن. كنت أفتقدك وأظهرت هي لي حناناً، وكانت غلطة. لقد أدركت هذا عندما حاولت أن تبالغ في حنانها.. لكنني لم استجب لها.. بل لم ألمس امرأة غيرك منذ يوم زفافنا... ولا أريد ذلك.

حدقت إليه وقلبها يخفق. وهمست برقة: «قل ذلك مرة أخرى!».

فمدّ يده يمسح دموعها: «أي جزء من كلامي تريدين أنْ أكرر؟».

فمنحته ابتسامة مرتجفة: «أحبك!».

ـ أحبك!

واقترب منها وقبّل وجهها المبلل بالدموع.

ـ أحبك أكثر مما أحببت أي امرأة من قبل!

ـ وأنا أيضاً أحبك!

ـ أحقاً؟

ـ نعم... بجنون، تماماً كما كنت أحبك حين طلبت منك الزواج!

ـ لم يكن تفكيرك مستقيماً حينذاك.

ـ كنت أفكر في مقدار رغبتي فيك.

ـ ليس في مقدار رغبتك بالحوض؟

ـ لم يكن الحوض سوى عذر. كنت أعرف أنه سيكون لي بأي شكل، فقد أخبرتني شيريل بهذا.

ـ أتعنين أنه لم يكن سبب رغبتك بالزواج؟

ـ أنا آسفة...

لم تجد فرصة لتقول أكثر من هذا لأنه قبلها فجأة مرة أخرى، وبقيا متعانقين فترة، ما جعلها لا تستطيع التفكير في شيء آخر.

وعندما انفصلا عن بعضهما البعض كانا يرتجفان من الرغبة. ونظر إليها وقال: «لا تعودي إلى لندن يا إليزابيث، أرجوك. حياتي لا تساوي شيئاً من دونك».

فقالت بحذر: «لكنك ستحصل على الحوض».

ـ فليذهب إلى جهنم ذلك الحوض اللعين. أردت شراء الحوض لأنه كان أشبه بإسفين بيننا. وكنت أحياناً أشعر بالغيرة منه!

فنظرت إليه متعجبة: «وماذا تجد في حوض بناء مراكب قديم؟».

ـ بدا لي أنه يعني لك شيئاً أكبر من أي شيء آخر بعد موت أبيك.

ـ لم يكن يعني لي شيئاً أكثر مما تعني لي أنت... افعل به ما تشاء فأنت الذي يهمني أمره.

فهمس عاتباً: «أنا أفضل أن أفعل ما أشاء بك أنت».

فضحكت: «يبدو ذلك ممتعاً».

ـ ماذا بالنسبة إلى وظيفتك في لندن؟

ـ يمكنني أن أحصل على وظيفة أخرى... ولكن لا يمكنني أن أحصل على «جاي» آخر بسهولة!

فقال وهو يغمرها بقبلات محمومة: «الاطراء يوصلك إلى كل مكان».

فهمست تغيظه وهي تبتعد عنه: «ما الذي ستفعله بي إذن؟ يبدو أنه شيء مثير؟».

فكر لحظة وقد بدا عليه الجد فجأة. ثم قال وهو ينظر في عينيها: «أريد منك أن تبقي هنا معي، وتكوني زوجتي».

عادت بأفكارها لحظة إلى يوم عرسها، عندما كانا واقفين على هذا الشاطىء الساعة الحادية عشرة، مقسمين على الحب والاحترام إلى الأبد.

وقال: «لن تعود ثمة أسرار بيننا. فقط الصدق والحب من الآن فصاعداً».

فقالت برقة: «آه، هناك شيء واحد فقط. لم أكن صادقة فيه معك تماماً».

ـ ماذا...؟

ـ الأمر يتعلق بنتيجة الاختبار.

ـ نعم...؟

ـ إذا كان صبياً، أتظن أن بإمكاننا أن نسمّيه «ألكس»؟

***